البَر الثاني

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: البَر التاني
تـأليـــــــف: أ.د.عبد الناصر محمد النجار. غلاف: عبير سعد
تدقيق لـغوي: محمد غنيم سنة النشر:٢٠٢٣
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح القطع : 20*14
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 29534 / 2023

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 472 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-472-8

البَر الثاني

أ.د. عبد الناصر النجار

رواية

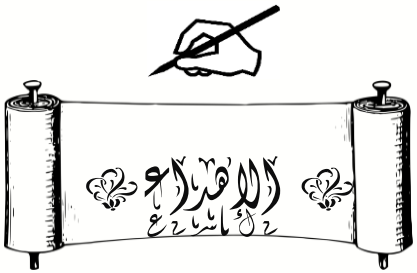

إلى هؤلاء

الذين دخلوا الحياة من بوابة الموتى

أُهدي كلماتي..

إلى هؤلاء الذين خاضوا المعاناة

ولم يدركوا جمال الرحلة..

إلى هؤلاء الذين قرأوا السطر الأخير في كتاب الموتى

ولم يقرأوا نصوص الحياة في كتاب البقاء

أُهدي لكم تجربة العودة للحياة..

☆ تعريف بالكاتب ☆

★ الأستاذ الدكتور عبد الناصر محمد النجار.

★ مواليد قرية شرياص، محافظة دمياط، يناير ١٩٦٧.

★ حصل على بكالوريوس الطب، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٠، بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف.

★ حصل على الماجستير في عام ١٩٩٤.

★ حصل على الدكتوراة في الجراحة عام ١٩٩٨.

★ أستاذ بكلية الطب منذ عام ٢٠١١.

★ رئيس قسم جراحة التجميل، كلية الطب، جامعة بني سويف حتَّى عام ٢٠٢٣.

★ حاصل على ليسانس الحقوق عام ٢٠٢١.

★ عضو الجمعية العالمية للتجميل ISAPS

★ عضو الجمعية المصرية للتجميل ESPRS

★ الإصدارات السابقة ★

★ حكاوي المندريش.. "نثريات" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ يوميات طالب من الأرياف.. "سيرة ذاتية" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

(١)

الواحدة صباح يوم لا أذكر تصنيفه.. أسمع قرعًا مُلحًّا على باب منزلي الساكن دومًا، أسرعت لأَفتَحه متوجسًا فإذا بصديقي يونس الذي مات وشاركت فِي دفنه منذ أكثر من عامين يقف أمامي، كان كفنه مُهلهلًا كمن جاء من القبر على عُجالة، واستحييت أن أسألَه أهذا من عذابٍ مرَّ به؟! أم أن الأيام الخوالي فِي القبر قد عبثت بكفنه حتَّى تمزَّق؟!

دعوته للدخول رغم الذهول الذي أصابني بسبب حضوره وهيئته الغريبة، لم أستسغ وقوف هيكل عظمي حي فِي صالة منزلي رغم كوني طبيبًا، أسرعت إلى غرفتي أبحث عن ملابس إحرام كنت قد احتفظت بها منذ آخر زيارة لبيت الله الحرام، حملتها إليه ليواري سوءة عظامه الشبه بالية، وقفت أنظر إليه وهو يلُفُّ الإزار حول وسطه المُفترَض وجوده، ويطرح الرداء حول كتفه

بحركات ثقيلة يبدو معها وكأنه يعاني من إعياء أو هم شديد..

لم أكن أدري ما أقدِّم له من طعامٍ أو ضيافة -فلا أعلم هل تتناول الهياكل العظمية الطعام حين تخرج من قبورها للزيارات أم أنها احتياجات دنيوية بحتة قد تخلَّى عنها- فقلت له بشَيْءٍ من المرحِ:

- إنت مش غريب، اطلب اللي إنت عايزه..

ابتسم بهدوء شاكرًا، ثُمَّ نظر إليَّ وطلب طلبًا غريبًا جدًّا لم يخطر لي ببال، قال لي:

- اِفتَح الفيس بوك، وهات صفحتي الشخصية، وارجع بالزمن سنتين فاتوا، عايز أشوف الناس قالوا إيه عني بعد موتي..

جلس إلى جواري ليزكم أنفي برائحته الخانقة، رجعنا فِي صفحة الفيس بوك خاصَّته حتَّى يوم موته، ليقابلنا آخر بوست كتبه ابنه على جدارها..

"اليوم مات أبي، العزاء بالمسجد الكبير، لا أراكم الله مكروهًا فِي عزيزٍ لديكم"

كانت عظام وجهه توحي بعدم الرضا حين قرأ النعي، فسألته عن سبب ضيقه، ردَّ باقتضاب:

- هو ماله نعي روتيني باهت كدا ليه؟! مش حاسس فيه بأي مشاعر، نعي بارد.. لكن ما علينا، هاتلي التعليقات..

بدأنا فِي تصفحها واحدًا تلو الآخر، كانت كلها تعليقات تشبه إمضاء الموظفين، إلَّا تعليقًا توقف عنده فرحًا وقال:

- دا كلام من القلب..

كان تعليقًا لموظفة عملت تحت رئاسته لبعض الوقت، كتبت دُمت عظيمًا حيًّا وميتًا..

بدا على عظام وجهه بعض السعادة، وقال:

- والله فيها الخير، حفظت الجميل..

تعليق آخر توقَّف عنده وقال بامتعاض:

- منافق حتَّى بعد موتي، دا إنت كنت أكتر حد بيكرهني وبتتمنَّى اللحظة دي من قلبك..

ثم توالت طلباته الغريبة حين قال لي:

- اشرب سيجارة، عايز أشم دخانها، دماغي خرمانة..

أعتقد أنه نسي أني لا أتعاطى السجائر، لكنه صديق عزيز جدًّا، ولن أرفض له طلبًا، فمع هذا الموقف الغريب الذي أعيشه لا مانع من أن أجرِّبَ إحداها لأجله..

سألني وهو يستمتع بدخان السيجارة الذي انتشر من حوله قائلًا:

- تعرفش الولاد عملوا إيه من بعدي؟!

حقيقةً كنت أعرف، لكنني أنكرت، فهذه أخبار لا أحب حملها أبدًا، وهو رجل مات من سنتين وأكثر، ومش ناقص أخبار سيئة ممكن تجيب أجله تاني..

استمع لكلماتي المُماطلة وهو ينظرني بعين خبير توحي إليك بأنَّه قد خمن الحقيقة..

أصابه الضيق وهو يُعدِّل من وضع الإزار الذي لا يجد ما يتعلَّق به سوى بعض العظام الخالية من الحياة والتي لا يلبث أن ينزلق عنها، ضحكت واقترحت عليه أن أتصل

بحانوتي أعرفه، وأطلب منه أن يأتيني بكفن سريعًا على أن يكون من النوع الفاخر..

انزعج الحانوتي لا لشيءٍ إلَّا أن أكون قد أحضرت حانوتيًا غيره لحالة الوفاة، لكنني طمأنته قائلًا:

- أنا عايزه لواحد صاحبي جه من التُرب زيارة وراجع، ومش لطيف يرجع بكفن مقطع ودايب، دا حتَّى يبقى منظرنا وحش قدامهم..

وبينما ننتظر وصول الكفن، نصحته أن يغتسل من تراب القبر ورائحة الموتى، وأعطيته واحدة من زجاجات العطر الفاخر الخاصة بي ليتطيَّب بها؛ حتَّى أتحمَّل معه رحلة البحث عن الحقيقة..

أخذ حمَّامًا دافئًا مع شامبو طيب الرائحة، وناداني من الحمام متسائلًا:

- فيه عندك after shave؟!

كنت أريد أن أسأله عايزه ليه؟!

لكنني قلت فِي نفسي، الموتى أيضًا لهم حركاتهم..

خرج ملفوفًا فِي الكفن ومن فوقه ملابس الإحرام، وقال مُمازحًا:

- العطور دي ترد الروح.. وجلس بجواري لنبدأ الحديث...

(٢)

أثار أمر عودة يونس من الموت فضولي رغم غرابته، وتحوَّلت مشاعري لخليط بين الرغبة فِي المعرفة والخوف من المجهول، والتردد فِي خوض تجربة غامضة المعالم، لكن فضولي غلب ترددي وأصررت أن أخوض التجربة كاملةً، حتَّى أنني سألته: هو أنا ممكن آجي معاك؟!

صمت قليلًا ثُمَّ قال: ممكن نستأذن لك..

بادرته قائلًا عندي ألف سؤال أريد إجابته، فردَّ مبتسمًا ليخبرني أن عنده ألف إجابة على ألف سؤال آخر لم يخطر ببالي، اتفقنا أن نُقسِّم الحوار حتَّى يتسنَّى لكل منَّا الحديث عمَّا يريد..

عاد مرةً أخرى ليغلبه فضوله ويسألني..

هي مراتي اتجوزت من بعدي ولا لا؟!

لم أستطع أن أُجيب بكل ما أعرف، ففضَّلت الصمت،

فأسرع يقول:

حتى لو اتجوزت مش عيب ولا حرام، هي دايمًا كانت شايفاني فِي صورة الزوج النكدي، مكانتش حاسة بمعاناتي الفظيعة فِي الحياة والشغل والتعامل مع البشر، غالبًا هتتجوز جوز جارتنا نهى صاحبتها، هي دايمًا كانت بتقول عنه إنه "جنتلمان"، على الرغم إن نهى كانت رأيها فيه إنه حقير، وضحك ضحكة خفت أن تتساقط معها أسنان فكِّه القديم جدًّا..

طلب مني أن أفتَح صفحتها على الفيس بوك، وقال هذه صفحات الكذب العُظمى، المشكلة هنا أن الحقيقة متوارية خلف أسوار العالم الافتراضي الخادعة، وأي حد يقدر يكذب، بص يا سيدي كاتبة إيه "الظلم ظلمات"، ثم نظر إليَّ وقال:

إحنا إزاي مكناش بنراجع كلامنا هنا؟!

"أي كلام فِي الحمادة"، أي كذب مُرتب، أي حد يدخل يسقف وينافق ويتنمر، الكلام دا هناك قصة عظيمة لم نتخيلها يومًا، أنا لقيت فِي صحيفتي كوارث من كلام عمري ما أعطيته أي اهتمام..

أفتكر ملاك رزعني قلم سفِّفني التراب؛ علشان قلت للمدير صباحك حلو زيك، وكانت كلماتي طبعًا مُنتهَى الكذب، كنت أكرهه، لكنها كلمة نفاق لم أُلقِ لها بالًا..

ظهرت صورة زوجته، توقَّف عندها قليلًا وقال:

خسارة مفهمناش بعض وعيشنا حياة كئيبة، كانت فترة الخطوبة أحلى أيام العمر، كنت عايز أسامح وهي عايزة تسامح، عايزين نقرب من بعض، ونفهم بعض، كنا بنخترع مبررات علشان نسامح ونفرح؛ كل واحد منا كان بيغمَّض عن عيوب التاني ويتقبَّلها، إوعى تصدق اللي يقول عليها أيام الكذب أبدًا، دي أيام الرغبة فِي الاستمرار والنجاح والحب، كنا بنتحمل بعض ومش بيهون علينا يعدي يوم نزعل فيه ونبعد عن بعض..

كان جالسًا إلى جواري إلَّا أنه حرَّك عظام يده فِي الهواء بحركة مسرحية؛ لتُفتح أمامه شاشة كالهولوجرام تعرض بعض مشاهد حياته القديمة، أخذ ينظر فيها فيرى نفسه، يرى أحداث الحياة من حوله، شريط حياته كاملًا، صوتًا وصورة، حتَّى أنه حرَّك الشريط وصولًا إلى ساعة موته، نظرت إليه بقلب مُنقبض من هول المشهد فرأيتني أبكيه مرةً أخرى..

على طرف شاشة العرض ألوان تتباين بين الأحمر والأزرق، سألته عن مدلولها، أخبرني أن الأزرق دليل صدقكَ، أما الأحمر فعلى النقيض..

كانت زوجته تتحرَّك فِي الحجرة، والألوان تتبدَّل عليها من الأزرق إلى الأحمر، والأحمر لون الكذب الفضَّاح، ضحك بصوت عالٍ جدًّا وقال لي:

- بص على الألوان، كل ما تبص ناحية صورتي أو تتحدَّث عني يظهر اللون الأحمر جليًّا، وكلما تحدَّثت إلى الأولاد

يتحوَّل اللون للأزرق، الكشف الرهيب للغيبيات اللي بيحصل فِي الآخرة دا فضيحة، مفيش العك اللي هنا دا، رجع بالشريط فجأة إلى يوم كان خارجًا من شقته هو وزوجته فصادف لحظة خروج جارته نهى وزوجها، ابتسامات بسيطة متبادلة منه لجاره وجارته، وابتسامات من نوع آخر من زوجته إليهما، صمت قليلًا ثُمَّ قال:

-الخيانة المتبادلة..

رسم على وجهه ابتسامة تقطر مرارةً، وقال:

دا أنا هوزِّيك العجب...

(٣)

مازلتُ غيرَ مستوعبٍ للأحداثِ، وكأنَّه حلم أتأرجح فيه بين الخوف والفضول والتعجب، كان يونس يعرفني جيدًا فِي حياته الدنيا؛ ولذلك حدَّثني قائلًا:

إنت الوحيد اللي جه على بالي أزوره، أنا عارف دماغك كويس، إنت غالبًا هتستوعب الحدث، هززت رأسي بالإيجاب رغبةً مني فِي معرفة المزيد، أخبرت يونس بلهفة أنه دوري لأسأل، قال فِي هدوء تفضَّل..

لم يكن هنالك سؤالٌ بعينه فِي رأسي، فعقلي يزدحم بالأسئلة حتَّى عجزت عن اختيار أحدها، لكنني قلت له بنوعٍ من البلاهة:

هو إيه اللي هناك؟!

حرَّك رأسه ناحيتي وقال:

- هناك كل شيء تتخيله، وما لن يخطر على عقلك أبدًا..

- كيف هي الرحلة إلى السماء، كيف هي الجنة والنار والأعراف؟

ضحك بصوت عظمِي لم أسمع مثله من قبل، وقال:

إنت لسه هنا ومش مستوعب اللي ممكن تلاقيه هناك، أقولك يا سيدي، هات ورقة وقلم وتعالى...

جئته بورقة وقلم رسم فيها دائرة كبيرة، وأخذ يشرح عليها..

فلنعتبر أن هذا حيث "الملكوت"، أخرج منها رسمًا بيضاويًّا له بداية ونهاية، قال هذا المخلوق اسمه "الزمن"، هذه بدايته وهذه نهايته.. هنا الجنة والنار.. وهنا المُستقر..

ثم أشار إلى نقطة فِي الملكوت، وقال:

هنا حياتنا الأولى عالم الذر..

لم أفهم من الكلام شيئًا لكنني سألته:

يعني الجنة أخبارها إيه؟! فيها ناس يعني؟!

والنار كمان؟! فقال بهدووووء:

- نحن هناك.. الصالح فِي الجنة.. والفاسد فِي النار.

تساءَلت مقطبًا:

يعني إيه الكلام دا؟! فين البرزخ، البعث، الحساب، فين الصراط؟!!

ضحكة من عظام وجهه الذي لم يكمل السوس نخره تتردَّد، ثُمَّ يجيبني:

كل دا موجود فِي حدود المخلوق اللي اسمه الزمن، ولأنه مخلوق يبقى لازم له نهاية، لكن على الوجه المقابل، هناك الخلود، وهذا حيث ستجدنا بالفعل..

عقلي الأرضي لا يتحمَّل ولا يستوعب، قلت له:

لابد أن نختار نقطة بداية ننطلق منها..

كنت أريد أن أبدأ من لحظة موته، كلام منطقي، لكنَّه رفض موضحًا:

- نبدأ من قبل ذلك، منذ نقطة البداية، نبدأ من السديم الأعظم.. اعترضت على فكرته، إحنا كدا عايزين ألف ليلة وليلة جديدة، ثُمَّ تساءلت..

- ولماذا نبدأ منذ السديم؟!

أجاب:

هنا بدأت حياتنا جميعًا على الأرض، حيث انقسمنا إلى فريقين متضادين، صالحين وطالحين، ولكي أخبرك بكل التفاصيل قد أتطرَّق إلى ما قبل السديم..

قمت مسرعًا وقبَّلت رأسه قائلًا:

بالله عليك يا يونس إنت راجل ميت وشبعان موت خليها من السديم.. هي مش ناقصة جنان...

(٤)

أخبرت يونس أنه من الضروري أن يدرك أنني مازلتُ من أهل الحياة الدنيا، يعني لازم أنام، آكل، أشرب، وأتابع حياتي البشرية المُعتادة، قال ضاحكًا:

طيب ما أنا كمان كدا، إنت فاكر علشان ميِّت فيه أي حاجة اتغيَّرت!! طب دا أنا حتَّى الشوية اللحم اللي كانوا ساترين عظمي وقعوا..

الليل يقترب والنوم يُغالبني، ونحن نجلس سويًّا منذ ساعات فِي بلكونة المنزل، لكن رغبتي فِي معرفة كثيرٍ من الأشياء كانت تمنعني من النوم، قال يونس مُبتسِمًا:

- اليوم يومي أحكي اللي أنا عايزه..

قلت له:

- اتفضَّل احكي يا عم يونس..

فتح يونس ذراعيه لتتجسَّد أمامه شاشته العجيبة من جديد، ليمرَّ عليها شريطُ حياتِه كاملًا، منذ الميلاد حتَّى الموت، وبالطبع بها كثيرٌ من السجلات التي لا أعرفها..

كنت أتشوَّق أن أنظر معه لكلِّ حدث تُجسِّده هذه الشاشة المذهلة، لكن كل تفاصيل حياته موجودة هناك، حتَّى أدق خصوصيَّاته، قلت له مُتحرجًا:

- لما يكون فيه حاجة ينفع أشوفها خليني أتفرَّج..

ثُمَّ أردفت مُمازحًا:

- آمين يا عم يونس!!

فأجابني ضاحكًا: آمين يا سيدي..

سمعتُ صوت فرح يخرج من الشاشة التي يُصرُّ يونس على تسميتها "التنُّور"، قلت له متسائلًا بفضول:

- ينفع أشوف معاك؟!

قال بمرح:

- أكيد ينفع..

نظرت فإذا به يوم زفافه، زوجته بجواره، يونس يرقص طاير من الفرحة، أخذت أتابع ببهجة فأنا أحب أجواء الأفراح جدًّا، لكن يونس قاطع أفكاري قائلًا:

- لا دا مش وقته، أنا عاوز لقطة النهاية، وبعدين أبقى أعمِلَّك فلاش باك..

- نهاية إيه يا عم يونس! هي مش ناقصه أحزان، سيبني أتابع، لكنه أصرَّ أن نرى الساعة الأخيرة فِي حياته الدنيا، طبعًا غرزت عيني فِي التنُّور، هذه ساعة لا خصوصيَّات فيها، رأيتُ يونس نائمًا على سريره الأبيض، ومن حوله أولاده وزوجته، صمت قليلًا ثُمَّ قال:

- لن تتخيَّل كم كانت هذه اللحظات مؤلمة، الموت فِي حد ذاته لم يُقلقني، إلا لسببين..

الأول أنني لا أعرف ما سيئول إليه مصيري، وكيف هي أعمالي فِي ميزان الحق، لكن كنت أحاول التغلُّب على هذا الشعور بِحُسن ظني بالله، أما الآخر فقد كنت أرى أولادي صغارًا، وأنا أُدرك من ذاكرة التاريخ كم تقسو الأيام على اليتامى.. لم أكن جاهزًا لفِراقهم بعد، لا حبًّا فيهم فحسب، بل خوفًا عليهم من تقلبات الليالي..

كنت أشعر بألم يعتصره وهو نائم على فراش الموت، كان ينظر إلى طفله الأصغر ويردِّد للكبار:

خلوا بالكم منه، أخوكم اتكتب عليه يعيش يتيم، هيتربى من غير أب، من غير سند، ابقوا روحوا معاه المدرسة أول يوم، متنسوش تشتروا له أدواته زي ما كنت باشتري لكم، خلوا بالكم أعطوه مصروف كويس، بلاش تحسسوه باليتم..

كان الولد يلعب غير مدرك لمرارة الفقد ولوعة الغياب، عينا يونس زائغتان فِي سماء الحجرة، فجأة توقف عن الحكي وساد الصمت، سألته عن سبب صمته الغريب، أجابني قائلًا:

حضرت الملائكة فِي هذه اللحظات..

رجع بالشريط ساعات أخرى إلى ما قبل لحظة النهاية، كان أبناؤه يجلسون فِي صالة المنزل، تُخيِّم عليهم سحابات الحزن، لكنَّه قال:

وجع الفراق وحش قوي، لكن الأكثر وجعًا، الوحدة ما بعد الفراق، لقد ظلُّوا ها هنا وغادرت وحدي، لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ قبل أن ألتقي أحدًا يعرفني..

إن أوَّل أرض الغربة مكانٌ يُقال له التيه، اللحظة التي تدرك فيها أنك ميت، صدمة كبرى..

مُنتهى المُعاناة فيها عندما ترى الدود يُجهز على جسدك، وأنت لا حول لك ولا قوة، غير قادر على أدنى مقاومة..

صدمتني تمتمته بكلمات غريبة قال فيها:

أنا كنت قرفان من ريحتي وأنا بأتعفن، كنت عاوز الدود يخلَّص بسرعة، الرائحة لم تكن تُطاق..

عاد الشريط يجري مرةً أخرى حتَّى وصل إلى اللحظة التي شَخَص فيها بصره إلى سقف الغرفة، أعاد كلماته:

- الملايكة حضرت فِي الوقت دا، ومن اللحظة دي، أصبح الكلام ممنوع.. استرسل قائلًا:

- اللحظات دي كانت صعبة قوي، إنت مش مُتخيِّل فكرة نزع الروح بجد وعن تجربة حاجة مُخيفة ومُؤلمة جدًّا..

ثم رجع بالشريط مرَّةً أخرى، وكأنه يتمسَّك بالبقاء فِي الحياة الدنيا أطول لحظات ممكنة، قال بعدها:

الفجر قرَّب يأذن، قوم صلي وادعيلي..

قلت له:

- ما تقوم نصلي جماعة..

رد قائلًا:

- أنا ملف خدمتي اتقفل خلاص، لكن دعواتك ممكن توصلني.

ثُمَّ قام إلى كنبة فِي جانب الصالة ونام عليها، مُتمتمًا:

- متنساش تجيب حاجة أتغطى بيها، الجو عندكم لسه برد كالعادة...

(٥)

استيقظتُ على صوتِ أذانِ الظهرِ فِي المسجد القريب، وجدت يونس ما زال نائمًا على كنبة الصالون، وساقه اليمنى مُدلاة على الأرض، حاولت رفع ساقه على الكنبة، فاستيقظ جالسًا فِي مكانه، أخذ نفسًا عميقًا، فكان الهواء يمرُّ بين ضلوعه العارية ليصنع صوتًا مُتناغمًا مع حالته النفسية، توجَّه إلى مرآة ضخمة فِي أحد أركان الصالة وقف أمامها يتأمَّل نفسه قائلًا:

- يااااه الموت فرق معايا كتير..

التفت ليقول لي:

- بسرعة الحق الضهر؛ المواعيد بتفرق هناك جدًّا..

كنت فِي طريقي إلى الحمام لأتوضأ فأسرعت، قال لي عند عودتي وقبل الدخول فِي الصلاة:

الدعاء أمانة..

وقفت على سجادة الصلاة، رفعت يدي لأبدأ بالتكبير،

فاستوقفني وقد وضع يده على كتفي: القِبلة يمين شوية، صدقني بتفرق..

ثم استأنف وقد وضع يده على صدري موضع القلب:

طهَّر دا، لأنه هو دا رمانة الميزان، الحكاية سهلة لمن عمل بما عَلِم..

ثُمَّ أردف: متنساش تدعي لكل اللي هناك، متستقلش بالدعاء..

أتممت صلاتي، ثُمَّ طلبت الإفطار، جلست معه وجهًا لوجه وسألته:

هو الموت إزاي؟!

كان سؤال تقليب مواجع، فتح التنُّور وجاء بلحظة تركيزه فِي السقف، وقال:

في اللحظة دي أنا كنت خلاص مش قادر أتكلِّم، ارتفعت من حولي أصواتٌ كطنين النحل، حتَّى فقدت القدرة على سماع أصوات الناس من حولي..

استوقفته لحظة على شريط الموت، كان ينظر إلى نفسه ويخرج نحيبًا مكتومًا.. ربت على كتفه وتساءلت ما به! فقال:

الألم فِي هذه اللحظة لم يكن يُطاق، نزع الروح هو الخروج من هذا السجن الضيِّق جدًّا، إلى هذا البراح المُتَّسِع جدًّا، لكن الروح فِي هذه اللحظة تجهل ما يحدث، فتتشبَّث بالجسد وتتشعَّب فيه أكثر، فيكون النزع مؤلمًا لكل ذرَّة حياة فيك..

كان الشريط يمر ببطء، عيناه شاخصتان فِي جهة واحدة، أخذ لسانه يُردِّد الشهادتين فِي هذه اللحظات الأخيرة من الدنيا..

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن مُحمَّدًا رسولُ الله.

أصابني الخوف وكأن يونس سيموت موتةً أخرى، قال:

كانت هذه آخر لحظاتي هاهنا، إن ملاك الموت يقف أمامي الآن، كان يلبس ثيابًا بيضاء، قال كلماتٍ طيبة، ونادى على روحي بهدوءٍ مُخيف، كنت أراها وهي تخرج من فمي

إنها

إنها

إنها الروح.. تلك التي لا أعرف كيف أصفها..

صوت صرخة تخرج من التنُّور كسرت صمت اللحظة المهيب حين صرخت ابنته الوسطى "متسيبناش يا بابا" ثم صرخات أخرى تتوالى، وجُثَّته على السرير قد استسلمت للموت، يد حانية تضع ملاءة بيضاء على وجهه، صوت من الشارع يُردِّد بصوت رخيم:

وحدووووه.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، يونس مات يا جدعان..

قال يونس وقد تحوَّلت كآبته لضحكات مرحة:

- دا صوت عم شعبان مسئول الدفن، بقاله يومين قاعد فِي الشارع مُنتظر اللحظة دي، تحس إنه خايف حدَّاية تخطفني مثلًا، ثُمَّ نظر إليَّ وهو يحاول إيقاف هستيريا الضحك التي أصابته فِي لقطة لا تتناسب مع الموقف إطلاقًا:

- عم شعبان دا إيده تقيلة فِي الغُسل قوي، بتروح فِي أي حته، ولا عنده خِشى ولا حياء..

ثُمَّ قال مغالبًا ضحكاته:

- تصدق وتآمن بايه؟

قلت: لا إله إلا الله..

قال ساخرًا:

والله لولا إني كنت ميت ساعة الغُسل، كنت قمت عطيته علقة يستحق بعدها الغُسل...

(٦)

نفس جلستنا المعتادة منذ أيام، يونس مازال يكمل حكايا الموت وتبعاته، وأنا غارق فِي تجسيد كلماته فِي خيالي لصور محسوسة، إلَّا أنَّني فاجأته بسؤال يدور فِي رأسي منذ الأمس:

- إنت جيت هنا إزاي وليه؟!

قال فِي هدوئه القديم محاولًا التبرير:

- العيال وحشوني..

قاطعته:

- كنت تعالى لهم فِي الأحلام..

أخذ نفسًا عميقًا، وقال:

- كنت بآجي لهم كتير لكن ماكنتش بأشبع منهم، البنت الصغيرة بالذات مش عارفاني كويس، بدأت تنسى ملامحي، تردَّدت الكلمات على شفتيه وهو يسألني:

- إيه رأيك نروح نشوفهم؟!

حاولت الهروب للمرَّة الثانية فأعدت عليه سؤالي مرةً أخرى:

- إنت إزاي جيت هنا تاني؟

تحدَّث بهدوء الواثق العالم بالخفايا:

- تخيَّل أنا مش الوحيد اللي رجع هنا تاني، أنا بس عدِّيت على القبر وجبت معايا هيكلي، لكن فِي ناس كتير قوي موجودة هنا حوالين ناسها وأحبابها من غير ما يحسوا بوجودهم، واللي إنت مش عارفه إن العالم الآخر فاتح على عالمكم، مُتَّصل بيه بطريقة ما، يعني زي عالم الجن كدا، إحنا نشوفكم ونتابعكم ونعرف كل حاجة عنكم، لكن منقدرش نتواصل معاكم تواصل مباشر، أقولك على حاجة عرفتها وأنا هناك..

رددت بلهفة:

- قول يا يونس..

أخبرني بكلمات من ياقوت البحر، أنتم اللي محجوبين، أو الأصح محبوسين فِي الجسد الطيني..

أفهمها لك إزاي بس!

عايز أقولك إن الحياة على الأرض أصلها عقاب مش حاجة حلوة زي ما كلنا مُتخيِّلين..

قلت له مُتعجِّبًا:

- إزاي الكلام دا! هي دي مش خلقتنا الأولى وحياتنا من أيام أبونا آدم؟!

فقال بوضوح:

- طبعًا لا.. بس علشان تفهم القصة لازم نحدِّد فِي البداية أبونا آدم، أي آدم؟!

رمقته بتعجب وأجبته:

- هو آدم واحد بس، ولا إيه؟!

قال مُبيِّنًا مقصده:

- هو فعلًا آدم بوصفه مخلوق فهو واحد، بس على حالتين، آدم اللي كُرِّم بالحياة فِي الجنة، وآدم اللي عاش على الأرض بعد الطرد..

تساءلت:

- وما الفارق!!

فقال:

- الفرق شاسع جدًّا، آدم اللي كان فِي الملكوت الأعلى وسط الملائكة واحد، وآدم بعد ما وقع فِي المعصية واحد تاني خالص..

طلبت منه توضيحًا أكثر، فقال:

- المعصية شؤم تنزع عن صاحبها نور جلاله الأصلي، وهذا ما حدث مع آدم وإبليس مع فارق رد فعلهما بعد الوقوع فِي جُبِّها المُظلم..

آدم قصة خلقه حدوتة كبيرة جدًّا، ولك أن تتخيَّل إنه كان حوار الملأ الأعلى لزمن طويل بلغة الأرض، فآدم لم يكن أوَّل سكان الأرض ولا آخرهم، أو إن صح القول فالأرض ليست أرض واحدة.. ولا السكان متشابهين..

المحبوسين داخل الطين هم طائفة المخلوقات التي ننتمي إليها..

بدأت أفكاري تتشتَّت من غرابة ما يقول، ابتسم يونس وقال:

خد نفس عميق واسمعني، الخلق ثلاثة..

ملائكة.. جن.. وبشر..

الملائكة خلق نوراني وطوائف لا يُحصى عددها..

أما الجن فثلاث طوائف، جن، مردة، وشياطين..

والبشر طائفتان، آدميون هم أصل الخلق ومن بعض ضلوعهم خُلقت حوَّاءاتهم..

سكت فجأة ليقطع حبل أفكاري قائلًا:

مش هتقوم بقى نروح نشوف العيال؟

وحشوني ولاد الإيه..

(٧)

أنفقت كل حججي لتأجيل زيارة يونس لأولاده، فلا أعلم كيف سأدخل منزلهم بصحبة هيكل عظمي مُتحرِّك، ولا أتخيَّل ردود أفعالهم إذا ما قرَّر فِي فورة حماسة أن يُعرِّفهم بنفسه..

تعلَّلت بانشغالي فترة الصباح والظهيرة، لكن يبدو أن يونس الجديد لا يُصيبه الكَلَل، فأحواله بعد العودة قصة أخرى..

مرَّت الساعات جامدة حتَّى إذا دخل الليل جلسنا لاستكمال ما كنا قد بدأناه بالأمس..

- الحكاية قديمة قوي، بدأت بلا شيء، ثُمَّ شاء الله لكل شيء أن يكون، فتمَّت مشيئته بين الكاف والنون..

تساءلت مبهورًا بكلماته:

- كيف كان الله؟!

- هو رب كل شيء ومليكه، وكل ما دار عن الله فِي خيالك، فالله غير ذلك..

صحت بلهفة:

- صِفه لي..

ضحك ضحكة كاد قلبي أن ينخلع لها، ردَّ مُستغربًا كلماتي:

- إنت اتجننت؟! مين يوصف مين؟!

إنت مجنون إنك تفكر فِيَّ كدا، الله فوق كل خيال، ببساطة الآلة لا تستطيع أن تصف الصانع، وله المثل الأعلى، قلت له يعني إنت شفته وإنت هناك؟!

ردَّ نافيًا:

ولا أظن آدم قد نالها..

تعجَّبت كيف لم ينلها وقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ردَّ بخشوع:

لكنه لا تُدركه الأبصار..

كرَّرت تساؤلي: يعني مشفتوش؟

أكمل مُفسِّرًا:

- نحن غير مؤهلين لرؤيته حتَّى الآن، لكن فِي البعث الآخر لو كنا من الفائزين، ستكون الجائزة الكبرى أننا سنراه كما تُرى الشمس..

تابعت نثر تساؤلاتي..

- أخبرني عن الملأ الأعلى..

- سؤال من عرف أم من شهد؟! تساءلت وما الفرق؟

- لست ممن شَهِدوا، لكنني ممن سمعوا وعرفوا..

- أخبرني ماذا هناك؟

أخذ نفسًا عميقًا خرجت الكلمات مع زفيره..

السماوات السبع، العرش، الكرسي، وهالة من نور جلال الواحد الديَّان، خيال ما فوق الخيال، وجنون لو أدركته العقول لذهبت بلا أمل فِي عودة..

الله على العرش استوى.. نور على نور..

تمتمت وأنا مأخوذ بكلماته: فلتخبرني عن الملائكة..

- دول عالم تاني خاااالص، من الآخر دول مخلوقات فاهمة، ولذلك هي مطيعة بكل الرضا، فِي العالم الآخر أعدادهم لا تُحصى، وفي السماء أعمالهم لا تنتهي ولا تتوقَّف، صمت قليلًا ثُمَّ قال:

- قابلت عددًا منهم عند موتي، الملكين الموكلين بي فِي الحياة الدنيا كنت صعبان عليهم جدًّا لدرجة إن واحدًا منهما تحدَّث إليَّ قائلًا: إنت كنت طيب قوي، لكن كسول فِي العبادات، أنا كنت بأنادي عليك كتير، لكن إنت كنت غفلان..

دا طبعًا غير الملكين فِي القبر، ودول عاوزين حكاية لوحدهم..

- أكمل ما تعرفه عن الملكوت..

- ما لا يخطر على قلوب البشر مجتمعة، ألوان العرش فوق طاقة معرفة الخلق وإدراكهم، حَمَلة العرش لا يغلبهم نوم ولا يضعفهم حِمل، وآه مما سمعته عن

البيت المعمور، بيت الله فِي السماء تطوف من حوله الملائكة لينعكس نوره ويبارك بيته على الأرض..

كان يتحدث بفرح.. روعة الملك وعظمة الملكوت توحي بأنه الحي الذي لا يموت..

استطرد قائلًا: آه لو كنا نعلم ما عَلِم الخضر! ولو رأينا ما رأى موسى!

إنه الناموس الأعظم، لو نعلم كيف يُدبِّر أمورنا

لذابت أرواحنا عشقًا يا صديقي..

فجَّر حديثه الفضول بداخلي، الأسئلة انهمرت عليه فِي تتابع متسارع..

كيف كانت البداية؟!

أين كنا يوم كان آدم فِي الجنة؟!

وأين كان آدم قبل يوم الطرد؟!

أين كان مقامه؟! وكيف كان حاله؟!

هل كنا معه فِي الجنة وطردنا جميعًا؟ أم كان وحده؟!

والسؤال الأهم، إنت شُفت أبوك آدم؟! ولا كان فين؟!
هو مش إنت كنت فِي البرزخ؟!
قال يونس معترضًا على مقاطعاتي وتساؤلاتي:
بطَّل كلام وسيبني أنا أحكيلك...

(٨)

كما جلسات ألف ليلة وليلة كانت جلستي اليومية مع صديقي العائد بكنوز أخباره، ساعات تتشبَّع بالفضول والتطلع إلى كل ما هو مجهول، اعتدل يونس فِي جلسته، يظهر عليه الإرهاق وكأنه لم ينم منذ ألف عام، سألته:

هو إيه اللي حصل بعد خروج الروح؟

فتح يونس "التنُّور" ونظر فيه ليحكي، سألته ممكن أتفرج؟

لو قدرت تشوف حاجة اتفرَّج..

كنت أرى شاشة التنور بيضاء، لكنه يرى ما لا أرى، فليس من المسموح لي أن أطَّلِع على الجزء الأُخروي من التنور، وبحكم أنه ميت سابق يستطيع استرجاع كل ما مرَّ به هناك وما رآه..

تابع يونس.. كان إحساسًا رائعًا بعد انتهاء آلام نزع الروح، حتَّى أنني من نشوة التحرُّر من قضبان هذا الجسد كنت

أطير من السعادة، شَيْء كدا صعب الوصف، كنت ساعتها زي الأطفال اللي لسه بتجرَّب تمشي، طاير فِي سقف الأوضة، شايف جثتي على السرير، شايف كل الناس، واحد من الملائكة ضحك وقال:

- إنت ممكن تعدِّي من السقف والحيطان عادي، فلا حدود جسدية تقيدك بعد الآن..

جرَّبت فرحة الأطفال بأولى خطواتهم عندما بدأت التحليق، الشعور كان يجنن فعلًا، تخيَّل رواد الفضاء وانعدام الجاذبية، حاجة تشبه هذه الحالة، بس ضيف عليها قدرات خارقة، طبعًا كنت شايف إلى ما لا نهاية، كنت شايف اللي بتصوَّت من حزنها، واللي بيحاول يداري لا مبالاته أو كرهه، اللي جايه مستنية الأكل، واللي بيسأل عن الغُسل، لكن الحقيقة أنا كنت مشغول بالشعور الرائع الجديد..

قال يونس بلغة التجار:

- دي حاجة مملكة..

استوقفتني الملائكة معترضةً جموحي، اهدى يا يونس، عندنا مشوار ضروري، واحد منهم لفِّني فِي حاجة كدا زي الحرير أو أشيك الصراحة..

واحد تاني رش عليا حاجة مثل العطر لكن ريحتها خيالية، فعلًا حاجة مملكة..

وهوبًّا.. جه واحد سألهم جاهزين؟!

ردوا عليه وقالوا تمام، روح يونس عبد ربه الطيب معانا..

قلت للمَلك:

مين عبد ربه الطيب دا؟! السجلات فيها حاجة غلط ولا إيه؟

كنت عاوز أقولهم البطاقة مع ابني راح الصحة يجيب تصريح الدفن، اسمي يونس محمدين سيد أبو خشبة..

رد أحدهم مطمئنًا قلبي، الأسماء هنا اتنين، اسمك الأول وبعدها لقب عبد ربه الطيب، أو عبد ربه العاصي، وبس..

فهمت كدا إن البداية حلوة، الليلة شكلها عنب يا جدعان، أنا طلعت من المجموعة الطيبة، وبلا أي

مقدمات راح الملاك دا "لافعني تحت باطه تقولش صاروخ طاير" وأنا كنت زمان بأخاف من الملاهي خاصةً الصاروخ.. الملاك دا ولا ألف صاروووخ..

بعد شوية بدأت أصرخ من الفرحة زي العيال الصغيرة، لما هدي شوية خفت يقف، قلت له:

- ممكن لفَّة كمان!!

ابتسم الملاك وقال لي:

- يا يونس دا مش وقته، ورانا استئذان لازم ناخده علشان ورقك يخلص، ونجيب لك العفو العالي..

كان نور المكان يغلب ألوانه المبهرة..

سألت الملاك:

- إحنا فين كدا؟! أخبرني أنها السماء الأولى..

اللهم صلِّ على النبي وجماله، كل الجمال دا ولسه الأولى!!

صوت يصدح متسائلًا من خلف حجاب مين معاك؟!

أخبره الملاك هذا يونس عبد ربه الطيب..

فُتحت الأبواب، ولقيت فرح بجد كأنه يوم عُرسِي، أُمم من البشر والملائكة، وهات يا بوس وأحضان، الكل يُردِّد فرحًا:

يونس وصل يا رجالة..

وأنا أقول فِي نفسي: "يونس مين اللي وصل!! أكيد فِي حاجة غلط"، خطر ببالي فيلم سلامة فِي خير لمَّا افتكروا إن سلامة العامل هو السلطان، لكن لقيت أبويا وأمي جايين جري من بعيد، أنا الصراحة من الفرحة نطيت من إيد الملاك، اترميت على الأرض أبوس رجل أمي، كانت وحشاني قوي، قمت وبوست إيد أبويا كمان، نظرت بكل الحب لوجوههم المشعة نورًا، قالوا الحمد لله على سلامتك يا يونس، عدت لأحضانهم لا أريد المغادرة فاعترض الملاك:

- يلا يا يونس نخلص ورقك الأول، وبعدها اعمل كل اللي فِي نفسك.

قربت من الملاك وقلت متسائلًا:

- إنت متأكد إن كل دا علشاني؟ دا كتير قوي قوي..

قال الملاك إنت متعرفش مقامك هنا يا يونس، وأنا أردد فِي نفسي مُتعجِّبًا مقامي أنا؟! بمناسبة إيه بس؟!

سلمني لملاك آخر ومعه لفيف من الملائكة قالوا بحبور:

أهلًا بالعبد الصالح..

أنا مش قادر أصدَّق بجد، أنا عايز أسجد ألف سجدة شكر لله، أنا بجد عايز أسأل أنا عملت إيه لكل دا!!

جرت الكلمات على لساني كما بقلبي، يا ربي لك الحمد على فضلك، يا رب إنت حنين قوي، وكريم قوي، ومش لاقي كلام يكفي شكرك يا رب..

ناداني الملاك لأخرج من حالة الرضا التي سيطرت على حواسي سألته معترضًا على فين العزم؟!

أجابني وأمارات الحبور ترتسم على تفاصيله النورانية، إلى السماوات السبع حتَّى نصل تحت العرش لتنال العفو وتنعم بالرضا..

رحلة السماوات يا جدعان لازم تتحكي لوحدها، إيه الجمال دا والعظمة دي!! عالم الأطياف فوق قدرة

العقل البشري على الاستيعاب، كل هذا فِي الملكوت، فما بالك بمالكه وخالقه!

كل شوية أقول مثلما تعودت أن أردد على الأرض

"اللهم صلِّ عليك يا نبي"

كانت الملائكة بصحبتي تضحك من طفولتي، براءتي، أو ربما سذاجتي، لكن أحدهم قال:

هتشوفه فِي رحلتك بالتأكيد..

تساءلت مندهشًا من؟ أجابني من صلى عليه الله فِي عليائه، وملائكته وجميع الفائزين من خلقه، ومن صلَّيت أنت عليه فكان لك بكلِّ صلاةٍ ذكر فِي السماوات ألف مرة..

انتابتني قشعريرة سرت بروحي، ومكنتش عارف أرد وأقول إيه غير اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه..

توقَّف الملاك وقال:

نحن الآن تحت العرش ننتظر الأمر فِي شأنك، ثُمَّ أصبح الحلم حقيقة، حين سمعت صوتًا كأجمل وأحلى وأعظم ما قد يخطر على قلب بشر يقول:

يا ملائكتي إني أُشهدكم أني قد رضيت على عبدي،
فاجعلوا روحه فِي عليين، وأروه مقعده من الجنة..
فصدحت بكل ما بروحي من حياة.. الله أكبر..

(٩)

حملتني كلمات يونس على بساط سحري، لا لأقطع به المسافات؛ لكن ليحملني إلى ملكوت لم تخطر تفاصيله على قلبي فِي أمتع تخيُّلاته لجزاء الصالحين، تشرد أفكاري لما بعد هذا الحديث وما قد كان قبله، أرى يونس يتأرجح بين حياته الدنيا وبين ما اختبر من أحداث الآخرة، تعجَّبت لارتباطه بهذه الحياة رغم علَّاتها فسألته: هي الدنيا وحشاك؟!

ارتسمت على وجهه ابتسامة تحمل بين طياتها الحنين:

مش عارف، لكن الحياة الدنيا لها طعم خاص جدًّا،

لذة فيها سحر غريب، رغم إن اللي هناك حاجة ولا فِي الأحلام، بس تحس الدنيا مرشوشة شهوات، ودا فِي حد ذاته متعة للإنسان، لا ينجو منها إلا من أخلص لله، ودي قصة محتاجة قلب طاهر، والقلوب الطاهرة عند الأطفال والناس اللي كبروا لكن احتفظوا بداخلهم بقلوب مثل الأطفال..

ثم أردف قائلًا:

- بمناسبة الدنيا أنا عاوز أخرج..

نظرت إليه بتعجب، فهذه أزمة حقيقية أحاول الهروب منها منذ عودته، سألته:

- كيف سأخرج ومعي هيكل عظمي حي؟!

أصرَّ على رأيه وقال:

- متخافش..

وكأن كلمته هي العصا التي ضربت ناقوس القلق والشك بداخلي، ضاقت عيناي وأنا أتفحَّص وجهه وأسأله:

- هنعمل إيه لو عدينا على كمين شرطة، هقول إنت مين ولا إيه؟!

قال بجدية يحاول من خلالها إقناعي بجدوى الأمر:

- أنا مش هتكلم خالص، أنا هكون قاعد ثابت فِي الكرسي، ولو حد سألك تقول دا هيكل عظمي أستخدمه للشرح، وبما إنك دكتور فالموضوع طبيعي..

قلت له بنفاد صبر محاولًا جعله يتخلَّى عن رغبته هذه:

- مش بالبساطة دي..

ردَّد وهو يجذبني بقوة تتنافى مع كونه مجموعة من العظام البالية: يلا نخرج بقى ومتعقدهاش..

خرجنا من باب الشقة سويًّا، لكنني كنت مضطرًا لطلب أبو فارس حارس العقار ليحمل عني هذا الهيكل العظمي التعليمي حتَّى سيارتي كي لا نثير الشبهات، ورغم أنه واضح كونه هيكلًا حقيقيًّا، إلَّا أن الرجل نظر لي بريبة تختلط بالذُعر وسألني وهو يضعه على الكرسي بجانبي:

هو دا هيكل حقيقي ولا بلاستيك؟!

تغاضيت عن سؤاله، أغلقت باب السيارة وانطلقنا، أخذت يونس فرحة الأطفال عند الخروج فِي جولة بالسيارة، فأخذ يتلفَّت من حوله ليجد على المقعد الخلفي "كاب" ويرتديه، ثُمَّ يعبث بتابلوه السيارة ليجد نظارة شمس فيغطي بها التجاويف التي سكنتها عيناه يومًا، أخذ يعبث بكاسيت السيارة ثُمَّ طلب أن يسمع أغنية ألف ليلة وليلة لأم كلثوم.

فنهرته مُتخوِّفًا:

- أبوس دماغك اعقل، شكلك وحركاتك ملفتة والعربيات اللي حوالينا مركزة عليك، لكن الأزمة حدثت عند اقترابنا من كمين جامعة القاهرة، أعتقد أن الضابط رآه وهو يرقص من بعيد، أشار إليَّ بالوقوف إلى جانب الطريق، ينظرني بحذر مشوب ببعض العداء، ثُمَّ طلب مني رخص السيارة وخاصتي..

وقف أمين شرطة عن يميني وأشار إليَّ:

- اِفتَح الإزاز دا..

حدق فِي يونس ثُمَّ رفع النظارة والكاب عن رأسه وسأل:

- إيه دا؟! جثة؟!!

أجبته بسرعة:

- جثة إيه لا سمح الله، دا هيكل عظمي علشان المحاضرات فِي كلية الطب..

أكمل الأمين هجومه بغير فهم:

- دي جريمة مكتملة الأركان.. جثة، قاتل، عربية، والدنيا ليل..

فأكمل يونس متمتمًا:

- والدنيا هُس هُس..

كاد الرجل أن يسقط مغشيًا عليه من الرعب، وأسرع إلى الضابط صارخًا: الجثة دي بتتكلم..

ضحكت ضحكةً بلهاء متمتمًا:

دا هيكل عظمي مش جثة..

بسرعة البرق طوَّقت القوات المصاحبة لهم السيارة، وافتَح شنطة العربية علشان نشوف باقي الجثث وأداة الجريمة.. وأصبح التعامل معي كما القاتل المتسلسل الذي يلهو بجثث ضحاياه فِي سيارته.

نظرت ليونس بغيظ وتمتمت من بين أسناني إحنا كدا فعلًا بقينا فِي مشكلة..

حاولت التوضيح للضابط:

حضرتك شايف بطاقتي، أنا أستاذ جراحة فِي كلية الطب، ودا هيكل عظمي..

لكن لسوء الحظ ارتفع صراخ سيدة تمر بسيارة جنبنا فِي الكمين وهي تقول بهستيريا:

الراجل دا بيعاكسني -قصدها يونس بالطبع-

اعتذرت لها وحاولت شرح الموقف، لكن الأحداث أخذت منحنى لا يُبشر بخير، وكلنا هيلة بيلة رايحين القسم، حملت يونس معي إلى البوكس، وقلت له:

أنا مش هينفع أتبهدل، اعقل بلاش جنان، اعمل نفسك هيكل وخلي الليلة تعدي على خير..

إنها ليلة الجمعة، وغدًا إجازة فِي كل القطاعات العامة، حاولت أن أتدارك الموقف مع ضابط القسم لكن كل محاولاتي باءت بالفشل، حرَّر الضابط لي محضرًا لحيازة هيكل عظمي بدون ترخيص.. ثُمَّ صرخ فِي العساكر المتجمعين حول يونس بنفاد صبر:

حطوهم فِي التخشيبة..

حملت يونس مرةً أُخرى ودخلت إلى التخشيبة، ولهذه الأخيرة قوانينها الخاصة، وقفت فِي منتصف الغرفة أحمله، أتلفَّت هنا وهناك فلا أجد مكانًا للجلوس..

قال أحد المُجرمين مستهزئًا:

الحلو داخل هنا ليه؟! وإيه اللي إنت شايله دا أخوك؟!

ضحكات ساخرة رخيصة تتردَّد من أفواه أكثر رخصًا، قلت أعمل فيها بطل وأنا مطمئن إن ساعة الجد يونس سيرعبهم بأنه هيكل حي، وإلا فستكون هذه أصعب ليلة سأعيشها..

قلت للمجرم بعد ضحكة تشبه ضحكته لكنَّها أقل رخصًا:

دي جثة واحد مدفعش أتعاب العملية..

وضحكة عبيطة مني كنت أتخيَّلني فيها محمود المليجي، جلست على الأرض وبجانبي يونس..

لمَّا عرف السادة المجرمون طبيعة عملي ومفردات الجريمة التي ارتكبتها تحلَّقوا من حولي، ودارت الأسئلة كلها حول إزالة الوشم والبشلات فِي وجوههم والتي كانت شاهدة عليهم وصنعت منهم مجرمين أمام ميزان العدالة.. هكذا تكلَّم أحدهم..

مرَّت ساعة فِي عيادة تطوعية إجبارية للسادة المحتجزين، انتهت بوعودٍ كثيرة لزيارتي فِي عيادتي الخاصَّة حال خروجهم من السجون، ومن خلفهم يجلس يونس، يكتم ضحكاته بمعجزة، انتقلت إلى جواره، سندت رأسي إلى الحائط، وهمست بجوار أذنه التي كانت هنا يومًا:

اعمل نفسك هيكل وخلي الليلة تعدي أبوس إيدك..

حاولت أن أتأقلم مع الوضع المتاح، فأغمضت عيني آملًا فِي بعض النوم، لأنتفض حين تعالت الموسيقى فجأة بصوت أحدهم يغني "أنا شارب سيجارة بني" ليبدأ الجمع الغفير فِي التنفيذ حرفيًّا، وتعج التخشيبة بكوكتيل من روائح المخدرات، حاولت الاعتراض فنظرني أحدهم من وسط غيمة الدخان المتصاعد من أنفه وفمه قائلًا:

النهاردا الخميس يا دكترة، يعني الحفلة والأُنس كله..

فضَّلت الصمت فِي هذا الوضع الجنوني، لأجلس وأشاهد الكل يتراقص على أنغام المهرجانات، ليتحوَّل المشهد إلى هيستيريا، ويقترب أحدهم من يونس يريد أن يرقص

معه، وأنا أحاول التشبُّث به والاعتراض معلِّلًا: بلاش أحسن يتكسر منك.. ليقتنع الأخير -ولله الحمد- ويترك يونس لحال سبيله.

ووسط صخب الجهل والإجرام والانحطاط، قام أحدهم بالسخرية من يونس، وأخذ يتمايل على أنغام أغنية يونس فِي بلاد الشوق يا ولد الهلالية، ويونس هيتجنن ويقوم يرقص معاهم، وأنا كل شوية أحاول منعه فيضحك حين أقول له أبوس إيدك اعمل نفسك هيكل، ووصل بي الأمر أن أمسكهُ كي لا يتحرك، حتَّى اقترب منه أحدهم ممن أذهبت الروائح عقله، وكانت الطامة الكبرى حين وضع سيجارة حشيش فِي فم أو بمعنى أدق "فك يونس" من باب السخرية، وكان ما خفت حدوثه منذ البداية، يونس سحب السيجارة كلها على نفس واحد، ثُمَّ أخرج الدخان من مناخيره بطريقة المحترفين، هنا فقدت السيطرة عليه بعد تعاطيه الحشيش، ليقف ويتراقص وسط التخشيبة، وتعم حالة من الهلع المكان، حتَّى أنهم جميعًا اتكوموا فوق بعضهم البعض، فقررت

استغلال الموقف وأشرت إليهم بألَّا يصرخوا؛ لأنه كدا الحالة جت له، وممكن يخلَّص عليهم جميعًا...

(١٠)

يبدو أن العالم الآخر قوامه الانضباط والجدية، ويونس كان لديه شخصية مخفية تموت فِي الهلس، أطلقتها من عقالها سُحُب المخدرات التي ملأت التخشيبة، فأعاد يونس توزيع المساحات بها -بعد خروجه عن السيطرة- إلى مجموعة من المجرمين مُتكوِّمين فِي جانب واحد من الغرفة، وباقي العنبر استولى عليه يونس ليرقص مُستمتعًا، فِي حين أجلس على الأرض أشاهد فِي صمت وأنا مفرهد من شدة الإجهاد..

عاش يونس حياته الدنيا شخصًا مُسالمًا جدًّا، يكره المُجرمين فوق الوصف، وأعتقد أن الفرصة قد جاءته على طبقٍ من ذهب ليثأر منهم الآن، ليتجسَّد المشهد الغريب، يونس المثالي الذي لم يشرب يومًا سيجارة -لا نظيفة ولا محشية- فِي مواجهة مجرمي التخشيبة وسط ستار من الدخان الآثم..

حالة الرعب المُرتسمة على وجوه المجرمين أسعدتني جدًّا، وزاد الطين بلَّة لما يونس لقى سيف موجود وبدأ يرقص به -زي خالد الصاوي فِي فيلم الفرح- بدأت أشعر بالقلق مما يمكن أن يحدث، ليأتي أحد شباب المجرمين ممن أفقده المخدر القدرة على التمييز ليرقص مع يونس فِي دويتو غريب، ليحطم تجاوب يونس معه هالة الرهبة والخوف، وليعطي باقي المجرمين الجرأة للتعامل مع يونس، خاصةً حين صاح يونس ما تشغلولنا حاجة فرايحي..

وتجيني تلاقيني لسه بخيري..

مش هتبقي لغيرى..

أيوه أنا غيري مفيش..

نحن الآن فِي صالة ديسكو المجرمين المتحدين، يقودهم هيكل عظمي أطلقوا عليه فورًا اسم "الشبح" وهو فعلًا اسم على مسمى، فها هو أول شبح حقيقي يوضع فِي تخشيبة، وعلى غرار "فيلم البحر بيضحك ليه" تقمَّص يونس دور محمود عبد العزيز، وهاتك يا تلطيش فِي المجرمين دون أن يحاول أحدهم التفكير فِي

مجرد الرد، وبينما هم يتساقطون جاءني كبيرهم يسعى على بطنه ليقول لي:

قول للشبح العفو والسماح يا سيدنا..

تحاملت على نفسي ووقفت أحاول تهدئة يونس الذي تقمَّص الدور بحذافيره، وتجاهل محاولاتي للفصل بينهم فهم مجموعة بائسة من "الغلابة" يلبسون عباءة الشرير، امتلأت الزنزانة بمجموعة من المنبطحين تحت أقدام الشبح وأقدامي، وفي نهاية الليلة الموعودة أُطلق على يونس لقب "الشبح"، بينما حصلت على لقب "سيدنا" وبركاتك يا شيخ يونس..

في الصباح.. حضر المحامي ليخرجني وأنا أحمل يونس على ظهري بمنتهى البراءة، أقسم الجميع إن "القِسم" فيه عفاريت، أقسمت على يونس بكل عزيز وغالٍ ألا يفتح فمه بكلمة عند السيد وكيل النيابة، ذلك الذي أمر بدفن الهيكل، وعمل محضر إداري لي، وقال للمخبرين:

اتحفظوا على الهيكل، لازم يتعرض على الطب الشرعي، وإفراج للدكتور..

قال المحامى:

يلا يا دكتور نمشي.

اعترضت متسائلًا نمشي إزاي ونسيب يونس؟!

نظر لي وقد ارتسمت علامات العجب على وجهه ميين يونس؟!

أجبته قصدي الهيكل، اقترحت عليه أن نخبر وكيل النيابة أنه لفرد من العائلة نقوم بنقل رفاته إلى قبر جديد، لكن المحامي اعترض بشدة وقال:

هنا ستصبح جريمة بجد، نبش مقابر، واستخراج جثة دون تصريح، ويمكن تلبس فيها جريمة قتل، بلاش الاقتراحات اللي تودي فِي داهية دي..

جاء أمين الشرطة لأخذ يونس للتحفظ عليه، فأسرعت أقول له: عنك أنا هشيله أحسن يتكسر منك، حملته ومشيت بجانب الرجل وأخدت أُوصيه وأنا أكرمش فِي يده حق مئة كوب من الشاي، خليه فِي غرفة متهوية كويس علشان ما يعملش ريحة للمكان، ويا حبذا لو كان بها كنبة أو كرسي لتضعه فوقه وليس على الأرض.

ابتسم وهو يشير إلى عينيه بإصبعه ويردِّد من "عنيا الاتنين يا باشا"، أدخلنا حجرة صغيرة بها بعض الأثاث خارج نطاق الخدمة، لها شباك منخفض يطل على الشارع، تمتم ضاحكًا وهو ينظر إلى يونس المحمول على كتفي "هواها هيرد فيه الروح"..

أنزلت يونس إلى أحد المقاعد فِي ركن الغرفة وأنا أُوصيه بالصمت وقلت له:

سلام يا يونس، اعمل نفسك هيكل..

خرجت من باب القسم، لأجد يونس الذي قفز من شباك الحجرة ذات الحديد الضيق بسهولة، وجلس ينتظرني على كبُّوت العربية، وإلى جانبه وقف توكتوك مشغل أغنية "آه لو لعبت يا زهر" فِي مكبر للصوت، صاحب التوكتوك -تتأكَّد من النظرة الأولى- ضارب "إستروكس" ومش مميز دا هيكل ولا بني آدم أصلًا..

ركبنا السيارة وبدأنا طريق عودتنا إلى المنزل ليطلب مني مُقهقهًا بمرح:

ما تشغلي حاجة فرايحي كدا، ومن هنا ورايح مش هتناديني يونس، إنت تقولي يا "شبح"..

هنا نظرت إليه بغيظ، وأخذت أفكِّر بجدية أحبس يونس فِي شنطة العربية...

(١١)

استيقظ يونس مبكرًا، أيقظني صوت حركة عظامه التي تكاد توقظ الموتى فِي القبور، نظرت لأجده واقفًا أمام دولاب ملابسي يفتش هنا وهناك، أجابني عندما سألته عما يبحث، أريد جلابية بيضاء وسروالًا، جوانتي وشرابًا، وشالًا ألفه على رأسي ونضارة شمس، ثُمَّ ختمها بماسك ليستر به ما ظهر من عظام وجهه، كان فِي ثيابه الغريبة تلك لا يبدو من هيكله شيءٌ، وصار أقرب لبطل فيلم الرجل الخفي، التفت ليجدني أنظر إليه مشدوهًا، فسألته على فين العزم بالشكل دا؟

يلا بسرعة.. عاوزين نلحق صلاة الجمعة، قوم اغتسل والبس جلابية من دول علشان نلحق ندخل المسجد قبل الخطيب ما يطلع المنبر..

ارتديت ثيابي على عجالة، كان يونس بغاية الكرم، فنثر على نفسه زجاجة عطر كاملة تقريبًا وأعطاني القليل المتبقي لأستخدمه وهو يقول لي:

عايزين مسجد محندق كدا، بلاش مساجد كبيرة..

دخلنا إلى مسجد قريب من البيت، تربطني بخطيبه صلة صداقة وجيرة طيبة، عرَّفته بيونس على أنه صديق مغترب يقضي بعض الوقت ضيفًا بمنزلي، ليقف يونس فجأة ويخبر الرجل أنه من سيخطب الجمعة، ويسرع صاعدًا إلى المنبر قبل أن يرد الرجل بالرفض أو القبول ويبدأ خطبة الجمعة مستهلًّا بصوت جهوري جذَّاب:

إن الحمد لله نحمده ونستهديه ونستغفره، ونخلع ونكفر من يكفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، وأشهد أنْ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، يبعث رسله بالحق وهو يهدي السبيل، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله فتح الله به قلوبًا غُلفًا، وآذانًا صُمًّا، وأعينًا عُميًا، أما بعد:

فإنه من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين..

أيها الناس من عرف الله عاش..

ومن مال إلى الدنيا طاش..

والأحمق يغدو فيها ويروح فِي لاش..
والعاقل عن عيوبه فتَّاش..
أيها الناس حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أنكم مُحاسبون على الصغيرة والكبيرة..
أيها الناس لا يصلح العمل حتَّى يصلح القلب..
ولا يصلح القلب حتَّى يُخلص لله..
ولا يخلص لله حتَّى يخلو من غيره..
ولا يخلو من غيره حتَّى يملؤه حب الله وحده..
واعلموا أن القلوب قدور والألسنة مغارفها..
وما من كلمة إلا وحوسب عليها صاحبها..
وإن بعض الكلمات فِي الفتنة كالسيف..
ولا يكب الناس فِي النار إلا حصائد ألسنتهم..
ألا واعلموا أن للجوارح أعمالًا وللقلوب أعمالًا..
وإن أعمال الجوارح مرآة حقيقة القلوب..
فمن صحَّ قلبه صحَّت جوارحه..
ومن دلَّ على خيرٍ كمن فعله..

والناس شركاء فِي الإثم ما لم ينكروا..
ألا وإن فِي الجسد مضغة إذا صلحت
صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله
ألا وهي القلب..
واعلموا إنما توزن أعمالكم الصالحة على سلامة قلوبكم..
أيها الناس إن قومًا غرَّتهم الحياة الدنيا فأوردتهم المهالك..
وإنكم لا تعلمون خياركم عند الله من شراركم
فرب أشعث أغبر ذي طمرين، لو أقسم على الله لأبره..
أيها الناس إنكم فِي فسحة لا تعلمون قدرها، وإن صحفكم مازالت تحت أيدي الكتبة فاملئوها بالخير، وإن قليلًا دائمًا خير من كثير منقطع..
أيها الناس إن فِي الجمعة ساعة إجابة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا واستجاب له، فأخلصوا لله الطلب، فإن الكريم خزائنه لا تنفد، عفِّروا وجوهكم فِي السجود له، فإن الكريم إذا قدر عفا..
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

ثم أكمل خطبته والناس ينظرونه وكأن على رءوسهم الطير فقال:

والله لا تعلمون كيف يكون الحساب، ولا تدركون كم من صغائر أهلكت أصحابها، ولا كم من صدقات لا تلقون لها بالًا رفعت أصحابها..

أيها الناس أخلصوا لله النية، تصدَّقوا على عيال الله الفقراء، فإن المال مال الله وإن الفقراء عياله، وإنكم وكلاؤه، وإن الغني إذا شاء أخذ ماله من وكلائه فأعطاه عياله..

الأيام دول والليالي حبالى، وصاحب الشأن كل يوم هو فِي شأن، أمور يبديها ولا يبتديها، يرفع أقوامًا ويخفض آخرين، وإياكم ودعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب..

أيها الناس ألا قد بلغت اللهم فاشهد..

ثم نزل من على المنبر، والجمع ينظرونه متجهًا نحوي، وأنا غارقٌ فِي صمتي مثلهم، فإذا به يقول لي:

أنت تؤمُّنا فِي الصلاة يا سيدنا علشان إنت عارف..

نظر إلى أحدهم مُستفسرًا فوضحتُ له:

علشان عنده البروستاتا ولازم يروح الحمام..

تقدَّمت الجموع الغارقة فِي كلماته العظيمة، ورفعت صوتي مقيمًا الصلاة..

صليت بالناس، واختفى يونس تمامًا عن المسجد، أخذ الناس يبحثون عنه لشكره، لكنه فصَّ ملح وداب،

ودا من رحمة ربنا بيا..

إلَّا أن رجلًا مجذوبًا قال:

دا سيدنا الخضر..

جاء حاملًا رسالة توقظنا من غفلتنا، ثُمَّ اختفى..

الله حي..

الله حي..

مداااااااااد..

وانقلبت الجمعة إلى مولد صاحب الكلمات الآسرة،

وبركاتك يا شيخ يونس...

(١٢)

وقف يونس شاردًا فِي البلكونة، مستندًا إلى سورها، كما اعتاد فِي الأيام الماضية ليستمتع بصوت الهواء من حوله، أخذ يُحدِّث نفسه بصوت أقرب للهمس:

إحنا معرفناش نعيش صح..

كلمة مبهمة جدًّا، لها ألف قراءة، ربما كانت كلها خاطئة..

ومثل هذه الكلمات الفضفاضة لها تاريخ غير مريح، بل إن كل المفسدين والمصلحين لهم نفس المنطق مع فارق التطبيق..

قلت له:

تقصد إيه يا يونس؟!

نادى على أماني -مُدبِّرة منزلي- وقال:

- فنجان قهوة للدكتور، لترد أماني مستنكرة وجود هذا الضيف الغامض بلباسه المريب الذي عادت من إجازتها

لتجده وقد احتلَّ المنزل واستولى على كل ما فيه وكأنَّه صاحبه وأكثر..

- الدكتور مبيشريش قهوة..

نظر لي غاضبًا، وتحدَّث من بين أسنانه:

قول لها لما اطلب حاجة تجيبها، أحسن أقوم أجيبها من شعرها..

أشرت لأماني بألَّا تغضب من كلماته الحادَّة، وتحاول تنفيذ طلباته بصدر رحب إكرامًا لكونه ضيفنا، فغادرت تتمتم مُعترضة بكلماتٍ لم أسمعها لتصنع القهوة المطلوبة..

وضعت فنجان القهوة على المنضدة بجوار يونس وغادرت، ليعبق الهواء برائحة البن التركي المميزة، أعشق رائحة القهوة، وكذلك يونس وبينما هو يستمتع برائحتها المميزة قال:

الكتالوج هو الحل..

أعتقد أني أفهم ما يقول، لكنني أردت الإيضاح بتفاصيل أكثر، فسألته:

أي كتالوج تقصد؟

أجابني:

كتالوج الصانع..

قلت له:

- الكتالوجات من عند ربنا كتير، ورغم التعديلات البشرية على كثير من أصولها، يصر أصحاب كل واحد منها أنه الصواب ولا أحد غيره، قاطعني:

- بالمنطق كدا آخر كتالوج هو اللي فيه آخر تعديلات..

سألته مستفسرًا:

قصدك الإسلام؟!

أجاب شارحًا:

- ما كلهم إسلام رغم اختلاف المسميات، المشكلة فينا كبشر متلقين، نحن من سميناهم بأسماء مختلفة رغم وحدة العقيدة، فِي النهاية هو رب واحد ودين واحد، وفي

الآخرة إما الجنة أو النار، لكن الناس لعبت فِي الكتالوجات..

سألته وعلامات الاستفهام ترتسم:

- لو وافقتك على آخر كتالوج ما هو برضه ناسه مختلفين، فأين الحقيقة؟!

قال يونس:

الكتالوج مُنزل من فوق سبع سماوات فيه شروط أهمها طهارة القلب، وأي حد تقابله راكبه الشيطان ووشه مليان غضب، دا مستحيل يكون الصح، الناس اللي بتدل غيرها على طريق ربها، هم مصابيح فِي السماء تنير دروب الأرض..

تابع يونس:

إحنا مش قادرين نميز بين الدنيا والآخرة ونفهم مدى الاختلاف بينهم، فنزن الاثنين بنفس الميزان، ودا الخطأ الأعظم، إحنا بنعمل كتالوج كوكتيل يتماشى مع أهوائنا، لا علاقة له بالكتالوج الأصلي..

وقال:

فاكر الرجل الطيب اللي كان بيحفظنا قرآن فِي الكُتَّاب، هذا الرجل الكفيف البسيط اللي كان اسمه الشيخ حمدان، أنا لما وصلت العالم الآخر لقيته هناك ولا الملوك، وحواليه شوية مزز..

قاطعته:

مزز إيه بس يا يونس؟! اسمهم الحور العين..

ما أنا قصدي كدا، الراجل دا أنا شفته فِي نعيم لو عُدت يومًا للحياة الدنيا، لاخترت العمل معه العمر كله..

قلت له:

- بعيدًا عن موضوع المزز دا يا يونس، عاوز تقول إيه؟!

- وهو إحنا ضيعنا هنا غير المزز والعيال، السعي خلف المال والمناصب، إحنا المفروض نرضى بالمكتوب الحلال، ونسعى حتَّى آخر قدراتنا، لكن الصراحة المتعة الحقيقية هناك، إحنا فاهمين خطأ إن المتعة هنا على هذه الأرض، لكن الحقيقة الدنيا دي هي الورقة اللي عليها عينة من عطر، زي اللي الولاد بيوزعوها أمام

محلات العطور لتختبر نقطة فِي بحر جمالها، لكن المستودع المليء بأفخر العطور وأندرها هو الآخرة، لازم نفهم كويس إن أثناء الامتحان لازم تركِّز فِي ورقتك فقط، لازم متضيعش وقتك فِي أي شيء آخر، ودا الفرق بين العيال الدحيحة اللي بتطلع الأولى، وإحنا اللي بندَّعِي إننا عيال دحيحة، الفرق بين من يبكي فِي اللجنة حُزنًا على خسارة درجة، وبين من يسخر من الامتحان ويبكي عند ظهور النتيجة..

هما طول السنة واخدينها جد، وإحنا طول السنة هلس، هما فِي الآخرة بشوات، وإحنا فِي الآخرة صِيع، هي الحسبة كدا كان لازم نتعب شوية؛ علشان نلاقي نتيجة حلوة تسعدنا للأبد..

(١٣)

كان شغل يونس الشاغل منذ حضوره أن يذهب لزيارة أولاده، لذا فلابد من خطة مُحكَمة التفاصيل كي يستطيع رؤيتهم دون كوارث مثلما ستؤدي كل تخيلات يونس وخططه، كأن نفاجئهم بالزيارة قائلين "ده بابا يا أولاد"، وتكون بعدها الطامة الكبرى..

أعلنت رفضي لكل أفكاره الجهنمية، ونصحته، تذكَّر كيف كنت تفكر وأنت فِي أرض الدنيا، طلبت منه كلَّ محاولات التحكم فِي النفس والصمت، رغم ظنِّي أن ذلك مستحيل، ويقيني أنهم لو عرفوا من هذا ستكون أم الكوارث..

اتصلت ببيت يونس لأخبرهم بأن والدهم قد زارني فِي المنام وطلب مني زيارتهم والاطمئنان على أحوالهم، وأن آخذ لهم في زيارة حلوى المولد اللذيذة بالطبع..

رحبوا بشدة، لست أدري هل لزيارتي أم لحلاوة المولد، أم لأن أباهم قد زارني فِي الحلم، ذهبت أنا ويونس إلى محل الحلويات، أخذ يتحرَّك فِي المحل يختار من

الحلوى ما يحب أولاده وزوجته.. قال طفلٌ فِي المحل متعجبًا:

إنسان آلي بيتكلم!!

وهنا أضاءت فِي رأسي فكرة الهيكل الآلي اللي جبته من الصين ويشبه الإنسان الآلي، يتكلَّم ويتحرَّك وربما يرقص ويدير حوارًا..

أخبرتهم فِي الطريق أني قادم وبرفقتي إنسان آلي على هيئة هيكل عظمي، دخلنا إلى البيت، فرحَّبوا بي جميعًا، لكن يونس كان فِي حالة من الذهول، كل شيء تغيَّر تمامًا، تفاصيل المنزل، ملامح الأولاد، روح المكان، جلست وإلى جانبي هيكل يونس الذي همس لي أنه هيتجنن ويحضن أولاده، ذكرته بالخطة التي اتفقنا عليها قبل حضورنا وأصررت على الالتزام بها ليكون له ما يريد دون صدمات أو مشكلات..

سألني الأولاد عن الهيكل الآلي ما اسمه؟

لم يستطع يونس صبرًا فقال بصوته العظمي الجاف:

أنا يونس..

عمَّ الصمت المكان، فقلت لهم مُفسِّرًا:

هو بيختار لنفسه آخر اسم سمعه..

كانت الساعة الخامسة مساءً، واليوم فِي طريقه إلى الذبول، وقفت أنظر يونس وهو يتلفَّت من حوله يبحث عن صورة كانت له على الحائط، لكنه لم يجد لها أثرًا، زوجته يبدو عليها نضارة السعادة، والأولاد مش باين عليهم أي يُتم.. رأيته يحاول التواصل مع أصغر أولاده - ذلك الذي أوصى أولاده به عند وفاته- وقف إلى جانبه وهو يعبث بألعابه أرضًا "البيت دا جميل"، ليرد عنه الابن الأكبر "دا من ذوقك يا يونس" رأيت نظرات يونس له تنطق بأمنيات أن يسمعها منه "أبي"..

تخرج ابنته الكبرى لتُلقي التحية وتحطِّم ما بقي له من آمال، عندما أخبرناها أن الهيكل اسمه يونس، فردَّت بخليط من أشياء لا يمكن حصرها بالكلمات "هو يونس ورانا ورانا"..

تغافل يونس عن الكلمات ووجَّه تركيزه وكل مشاعره نحو الطفل الصغير الذي يلعب على الأرض، كان يونس ينظره بكل حنان من ذاق اليتم ويخشاه، بدأ الطفل بالبكاء

فأخرجوا له لعبة الصبارة الراقصة التي يفضلها، إلَّا أن أحد أبنائه الكبار نظر نحو الهيكل الذي يظنه آليًا وقال "ارقص يا يونس" فلم يتردَّد يونس عن الوقوف والرقص حتَّى ينفذ طلب ولده ولتتحوَّل دموع طفله الصغير لضحكات تأسر القلوب..

انقضت وصلة المرح، جلس ابن يونس الأكبر إلى جواري وسألني هو بابا جالك فِي الحلم؟!

أجبته بنعم، ترحَّمت على يونس ودعوت له بالمغفرة، لتردد زوجته من بعدي: ألف رحمة ونور، مال يونس على أذني هامسًا:

مش من قلبها..

سألته متعجبًا من كلماته عرفت إزاي؟ هل علمت ما فِي نيتها؟ أجابني وعلامات الحزن ترتسم على تقاسيمه العظمية..

عداد الحسنات متحركش، دي دعوة من طرف اللسان.. يا خسارة العشرة والعمر اللي راح هدر..

أحزنتني كلماته وأخذت أردِّد "الله يرحمك يا يونس رحمة يتعجَّب لها أهل السماوات والأرض".. فما كان منه إلا أن أشار إلى عداد حسناته الذي ارتفع وقال فرحًا "اللي من القلب له تأثير وطعم تاني"..

جلسنا قليلًا ثُمَّ قرَّرنا الذهاب، احتضنت كلَّ أبنائه كي يستطيع تقليدي ويحتضنهم من بعدي، وكان له ما أراد احتضن الجميع حتَّى زوجته بحجة أنه روبوت آلي..

نزلنا درجات السلم فِي صمت، تعبيرات وجه يونس جامدة لا توحي بخير، بمجرد خروجنا إلى الشارع أفزعني صوت بكاء يونس كالأطفال، تعالى نحيبه وهو يحدِّث نفسه "الحسبة كلها كانت غلط، كان لازم أهتم بحاجات تانية خالص، أنا علمتهم دنيا كويس ووفرتلهم كل معطياتها ورفاهياتها، لكن نسيت أعلمهم دين بنفس المقدار، يا خسارة كان لازم أعرف إن الإنسان طبعه النسيان، أنا كنت راجع بأمنيات عظيمة فِي حصاد ما زرعته فِي حياتي الدنيا، لكن دلوقت بأتمنَّى أرجع للموت تاني".

أحزنني صوت الندم فِي كلماته، تعجَّبت لحاله وسألته: إنت زعلان ليه؟ محدش عمل حاجة تزعلك..

هزَّ رأسه نفيًا، واسترسل "أنا زعلان من نفسي مش منهم، من تجربتي فِي تربيتهم، إني معلمتهمش الصح الحقيقي، وإن القيمة مش فِي اللي هنا، القيمة الحقيقية فِي اللي هيسبقنا هناك، ثُمَّ كفكف دموعه وقال:

يا خسارة يا يونس.. يا ريتني عشت فِي آخرتي موهوم إنهم فاكريني دايمًا بالخير لكن مشغولين بحياتهم، يا ريتني ما شفتهم بيتمتعوا بمالي اللي قضيت عمري فِي جمعه وكان أكثر شَيْء أتحاسب عليه فِي آخرتي، وهما ولا فاكرين صاحبه حتَّى بدعوة، يا ريتني فهمت كدا من زماان..

(١٤)

ركبنا السيارة ويونس ما يزال على حالة الحزن الشديد التي لا أرى لها أيَّ تفسير، حاولت التخفيف عنه فمازحته "مش عاوز نشغل حاجة حزايني تناسب الحالة البائسة اللي إنت فيها دي؟"

وكعادة يونس فقد تبدَّلت تعبيرات وجهه وارتدى قناع المرح والسخرية وقال:

- طبعًا.. إديها حزايني، شغلِّي "كتاب حياتي يا عين" ضحكت على قدرته على التحول السريع من النقيض للنقيض..

- إنت قديم قوي يا يونس.. فيه حاجات دلوقت أحزن من كدا، دا فيه اللي كانوا بيقولوا عليه فِي بلدنا "حِزن الحِزن" وشغلت عبد الباسط حمودة الذي بدأ فِي وصلة من الكآبة التي أفقدته الذاكرة

أنا مش عارفني.. أنا تُهت مني.. أنا مش أنا..

صمت يونس وتحدَّثت ملامحه بما يشعر، سألته:

إنت متضايق ليه؟!

التفت بوجهه إلى الجهة المقابلة وأخذ يتمتم وكأنه يتحدَّث إلى نفسه: "أبشع إحساس فِي الدنيا إنك تكتشف إنك بقيت ماضي بعيد فِي حياة أولادك، لا تخطر لهم على بال ولو حتَّى بدعاء بالرحمة والمغفرة، أن تدرك أنك فقدت عطية "وولد صالح يدعو له" وانقطع عملك بعد أن أفنيت عمرك تتخيَّل أن زرعتك اقتربت أن تؤتي ثمارها، تُنسَى وكأنَّك ما حييت، تشوف حياتهم بعدك ماشية وكأنَّ وجودك وعدمه سواء، كأنِّي كنت مجرد خزنة البنك اللي يوم ما استلموها نسيوا من ضاع عمره لأجل وجودها، يا راجل دا حتَّى صورتي شالوها من بيتي، دا كدا كتير وميصحش أبدًا".

أخذتني كلماته فكانت كشعاع من ضوء يخترق ظلمة الممكن والمحتمل، ليكشف حقيقة ما يمكن أن يكون، هززت رأسي لأنفض عنها هذه الأفكار السوداوية وقلت له:

أنا شايف كل دا طبيعي جدًّا، إنت مُت من ألف يوم تقريبًا، وأصبحت بالنسبة لأولادك ذكرى، إنت عاوز الحياة تقف عند موتك؟!

دي أعظم نعم الحياة.. النسيان..

تخيَّل لو إنت كل يوم حاضر ومسيطر على أفكار ومشاعر أولادك، دي تبقى حالة مرضية، تصبح حياة مزعجة ومُميتة.. يا راجل دا اللي بيسافر الكويت لولا المصاري اللي بيبعتها بيتنسي..

يا عم دا راجل معرفة غاب فِي ليبيا تلات سنين زيك كدا وانقطعت أخباره، رجع لقى مراته على كتفها عيل سنة وشهرين، وجوز مراته "اللي كان صاحبه" قال له مُبررًا ما إنت غِبت وأخبارك اتقطعت قلنا أكيد كنت مع اللي اندبحوا هناك، أخذ الرجل يصرخ كالمذبوح من هول الصدمة، يحسب عمر الخيانة، يجلدهم بسياط من كلمات الخذلان، أنتم كدا متجوزين من سنتين، يعني بعد غيابي بسنة واحدة، مقدرتوش تنتظروا يا أولاد الكلاب تتأكدوا من موتي..

إيه يا عم يونس.. فوق هي دي الدنيا، علشان كدا اسمها دنيا؛ لأنها رخيصة..

كان يونس يسمعني وعقله يراجع كلماتي، قال محاولًا الاعتراض، بس برضه مش للدرجادي، ما أنا جاي علشان أشوفهم وكنت فرحان جدًّا..

سألته:

والتلات سنين اللي فاتوا كنت عامل إيه؟ وبتفكر فِي مين؟ إنت ناسي حكاية القبر والوصول والأهل والدود؟ إنت بس لما ترجع هناك لصحبتك الطيبة، أو يوم ما تموت البنت اللي كنت بتحبَّها زمان وتقابلها هناك، ولا هتفتكر ولا هيفرق معاك حد هنا خالص، إنت بس علشان لسه جديد فِي التجربة، روحك مازالت معلقة بالدنيا ومن فيها، علشان لسه هناك وحداني، إنما لو كنت ولِّفت على أي واحدة حلوة هناك وحياة أبوك ولا كان شغلك حد هنا..

من الآخر يا يونس إنت اللي مضايقك الوحدة، كان كلامي ليس على هوى يونس، لكنه فاجأني وعلامات التردد

تنقش عبوسًا على وجهه، وتهرب عيناه البائدتين فِي محجريهما الفارغين، وصدمني بهمسه:

مين قالك إن أنا هناك لوحدي؟! أنا متجوز هناك..

رددت من خلفه وبداية ثورة بركانية تشتعل فِي عقلي وقلبي:

متجوِّز؟!! إنت جاي تتخانق علشان صورة اتشالت، وإنت متجوِّز هناك؟! دا إنت ميِّت قفيل وتستاهل ضرب البُلغ، جواز إيه يا يونس اللي جاي تقول عليه؟!

قال مراوغًا:

- ما هو ممنوع هناك تبقى أعزب، لازم يكون لك شريك معاك فِي المرحلة دي حتَّى البعث الأكبر..

- ومين اللي اتجوِّزتها هناك يا يونس؟! سألته بنفاد صبر..

- دي حاجة كدا زي ورق اللوتارية كدا، يعني كان ممكن يقع حظي فِي مارلين مونرو مثلًا، وتبقى موتة مردغة..

قاطعته قاصفًا جبهته العظمية وأهه يبقى منه دلع لك وتعذيب لمارلين فِي آخرتها.. انجز يا يونس، اتجوزت مين هناك؟!

تحوَّل مرحه لغُصَّة، وخرجت كلماته تحمل جبالًا من الحزن: أهي جوازة والسلام..

سطعت شمس الحقيقة بعقلي، واتسعت عيناي عجبًا، حدثته وأنا أجاهد لحبس ضحكاتي:

إوعى يا يونس تكون جاي هربان من نكد مراتك الجديدة هناك!!

انفجر يونس فِي البكاء قائلًا بحرقة:

دول صنف عايز الحرق سواء اللي هنا ولا اللي هناك...

(١٥)

مرَّت عدَّة أيام على الزيارة المشهودة لآل يونس الدنيويين، استغرقها فِي التعافي، إدراك حقيقة الأمور، والتسليم بما سنَّه الله على كل خلقِه فِي الأرض من موتٍ ونسيانٍ ودورة حياة لابد أن تكتمل بغض النظر عن المكاسب والآلام..

استأنفنا بعدها نقاشنا من حيث توقَّف بنا قطاره، فكانت محطتنا الموعودة هي الموت، سألته عنه، ماذا تعلَّم من تجربته معه، فكانت إجابته آخر ما توقَّعت، تعجَّبت أن كان ردُّه "ولا أي حاجة"، فكانت كلماته آخر ما يمكنني تخيله إجابةً عن سؤال مصيري، كيف تقف بك الحياة فِي محطتها الأخيرة، لتجبرك على النزول واستقلال قطار آخر مطموس المعالم، يلفُّه ضباب الخوف والغموض، يحملك إلى أرض لا رجعة منها ولا طريق يوصلك إليها إلَّاه، لتجد فيها كل لحظات حياتك مُجسَّدة فِي صورتها الحيَّة، تقبع هناك، تنتظر وصولك،

ليكون اليوم الفصل، وإما خلود فِي النعيم، أو فناء متجدِّد لأبد الآبدين ثُمَّ تخبرني أنَّك لم تتعلَّم منه شيئًا!!! كيف يكون ذلك؟

ما هو لو اتعلِّمت شَيْء يبقى إني ظُلمت بوجودي فِي الحياة الدنيا..

زادت كلمات يونس من حيرتي، طلبت المزيد من التوضيح، مش فاهم تقصد إيه يا يونس؟!

أجابني تعالى نطرح سؤال مخيف، أشرت إليه أن اسأل..

هل من العدل إن واحد يغلط فِي الدنيا ستين سنة، يكون عقابه إنه يدخل النار خالدًا فيها؟! يعني ستين سنة قصادها خلود؟! ومثلها الجنة، لكن لو قلنا الجنة رزق وربنا يعطي ما يشاء لمن يشاء، لكن النار عذاب لازم يكون معاه عدل..

سألته وعلامات الاستفهام تتضاعف بداخلي، وأنت من وجهة نظرك شايف إزاي ممكن يتحقَّق هذا العدل؟

الإجابة فِي السؤال الأول، بصفتي إنسانًا أعلم يقينًا إنَّني لو رجعت الحياة الدنيا، وعشت بها مليون سنة هكرَّر

نفس الأعمال من خير أو شر، القصة يا صديقي هي "الكود"..

تساءلت مُتعجِّبًا:

كود إيه يا يونس؟! إنت كدا عايز تقول إيه؟!

تقصد إن اللي بيعمل الخير دا قدره، واللي بيعمل الشر دا قدره، يبقى إيه الحكمة من الحساب؟!

قال يونس نافيًا:

لا.. لا.. كلا البتة.. تعالى أفهمك..

بس علشان تفهم لازم فِي البداية نفرَّق بين علم الله وعلم الخلق، كمان لازم نفرَّق فِي طريقة التفكير فِي الله وفي الخلق..

الله خارج فكرة التقييم "حاشاه" هو ليس كمثله شيء، ولا يخضع للرؤية والأحكام البشرية المحدودة، فمن لا تتخيَّل ماهيَّته وقدرته وعظمته، لابد خارج نطاق إدراكك..

"الله" اللي خلق ورزق وأبدع يفعل ما يشاء وقتما يشاء..

إحنا عبيده، تجري علينا مشيئته فِي السماء والأرض..

من الآخر لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون..

والمجادلة الشيطانية الأزلية وحكاية فين العدل لو هتدخلني النار دي تقولها لعم صبحي الفرَّان، لكن ما ينفعش مع ربنا الكلام دا خالص..

أولًا.. لازم تفهم إنت مين؟ وهو مين؟

أنت لا شيء إلا أن يشاء هو لك أي شيء..

أنت تستمد قيمتك من أنه خلقك..

وقدر لك أن يكون لك فِي مُلكه قيمة..

إنما هتتكلم إننا فِي مُلكه أصحاب حقوق، ينفع ناخد ونعطي ونناقش ونقول ليه، دا كدا اسمه "هبل فِي الجبل"..

ثانيًا.. هو كتب أقداره علينا بمعرفته الأزلية بنا، هو صانعك، يعني هو عارفك كويِّس جدًّا، وعارف تاريخك الجاي واللي فات؛ لأنَّه مفيش عنده غيب، يعني مفيش قصة إن علمه الغيب يحد من حريتك..

لا يا سيدي.. هو عالم الغيب والشهادة..

يعني هو يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون..

والأدهى أنه يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون..

يعني بكل بساطة اللي ما حصلش لو حصل هيحصل إزاي، متخيِّل حدود علمه وقدرته!!

ونحن جميعًا فِي ملكه لا شيء..

والأدهى أن الكون كُله بما فيه ومن فيه عنده لا شيء..

هو ترك لنا حرية الاختيار وهذا عين العقاب وعين الاختبار بل وعين الغواية..

أن تكون مُخيَّرًا هو عين الابتلاء؛ ولذلك الذين اختاروا ما أراد أصبحوا وكأنهم مُسيَّرين، أُخرجوا من غواية التخيير، وأولئك الذين نجوا، وهم القِلَّة..

لكن الذين وقعوا فِي غواية التخيير، أولئك هم الذين هلكوا بجهل اختياراتهم وغرورهم..

أما عن العدل فلا رقيب عليه ليأمره أن يعدل فِي خلقه، إنما هو تفضُّلٌ منه فِي عظمته ألَّا يظلم خلقه، بل ويكتب بنفسه على نفسه الرحمة، وهنا يأتي سؤالٌ مهم...

طيب لما هو يعلم أهل الجنة من أهل النار، فما لزوم الحياة الدنيا، ما كان خلق خلقه، وأنعم بالجنة على من يريد، وعاقب بالنار من يشاء..

هنا كان يمكن أن يُقال إن ميزان العدل غير صحيح

لأن أهل النار سيكون لهم حُجَّة دامغة ملخصها أن ليس لهم ذنب فِي مصيرهم، وأن لو أُعطوا نعمة التخيير لاختاروا ما يصل بهم للجنة وليس للنار..

لذلك كانت الحياة الدنيا، وكان هذا الاختبار، لكيلا يكون للناس على الله حُجَّة..

نظرت إليه فِي ذهول مما قال ونفسي تُحدِّثُني بأنَّ يونس النهاردا حد تاني خالص...

(١٦)

أشرقت كلمات يونس بداخلي كشمس طال مخاضها، ليأتي نورها ويغسل ليل قلبي وعقلي فيعيدهما سيرتهما الأولى، حين كانا مدموغين بنقاء الفطرة، لم تلوثهما فرشاة شياطين الغواية والشك والحيرة، تبدَّلت نظرتي ليونس للنقيض حين رأيت منه وجهًا آخر لم أتخيَّل وجوده يومًا وهو صاحب العُمر، نظرت إليه فِي شروده، يراودني سؤال منذ حضوره الغريب أود طرحه عليه، سؤال قرَّرت أن أسأله:

إنت ليه اخترتني أنا دون كل خلق الله علشان تيجي تزورني؟!

قال يونس مبتسمًا:

علشان بحبك..

سعدت بجوابه، لكن سألته ثانيةً:

بتحبني ليه؟! يعني إيه المُميَّز فيَّا وخلاك تحبني؟!

صمت يونس، ظننته يفكر فِي إجابة مقنعة، لكنه قال:

الحب ماينفعش يكون له سبب، الأسباب تصنع إعجابًا أو احترامًا، أي شيء آخر إلا الحب، الحب ملوش تفسير..

الحب دا شغل أرواح مش أجساد، والأرواح مُنزَّهة عن الأسباب..

تعجَّبت من كلماته:

- إزاي الكلام دا؟! أكيد الحب له أسباب زي أي حاجة فِي الحياة..

نفى بحزم:

- يجوز نطبَّق القاعدة دي على أي شيء فِي الحياة.. إلا الحب ملوش أسباب..

قلت له مجادلًا:

- يعني لو قلت أنا بحب فلان لأنه طيب، عنده أخلاق أو كريم، دا مش حب؟!

- بالطبع لا.. ليس بحب.. لأنه لو ضاعت الصفات ضاع إحساسك تجاه الشخص، وربما تحوَّل للنقيض، والحب فِي الحقيقة لا يموت ولا يتبدَّل، لأنه مرتبط بالروح..

والروح مُخلدة خلودًا أبديًا..

أردف مكملًا:

لكن ما تصفه يمكن أن نطلق عليه احترامًا، تقديرًا، إعجابًا، قد يتولَّد عنه حالة من المشاعر اللحظية نطلق عليها خطأً اسم حُبٍّ، لكن الحُب الأصيل مثل عسل النحل الأصلي، له تاريخ، مذاق وملمس..

تابعت جدالي ضاحكًا:

الكلام دا مش صح يا يونس لأن ممكن أشوف واحدة وفي لحظة جمالها يبهرني، شكلها، تضاريسها أو حتَّى شخصيتها..

قاطعني معترضًا:

للمرة الألف هذه اختيارات الجسد البحتة، مجرد غرائز أو مشاعر مؤقتة، دا مش حب ولا عمره هيكون، اختيارات الروح حدوتة تانية..

طلب مني إشعال سيجارة؛ علشان حسب وصفه هو خرمان، أشعلتها وتركتها بجانبه ليستنشق دخانها وكأنه يتلذَّذ برائحته النفَّاذة، وبكل مرحه المعهود نادى على أماني:

يا منُّونة.. فنجان قهوة للدكتور..

نظرت إليه شزرًا، ثُمَّ رمقتني بنظرة تنطق سخطًا على هذا الغريب الذي قلب موازين المنزل واعتبر نفسه أحد أفراده وليس ضيفًا ثقيلًا على قلبها..

دقائق مرَّت فِي صمت، عاشها يونس تحت تأثير عبق القهوة ودخان السجائر، استدار نحوي وانسابت الكلمات بين شفتيه كما الترياق..

الحب ذاكرة الحياة الأولى، بصمة وراثية حُفِرت على جدران القلوب منذ العهد الأول للبشرية، لا تبديل لها ولا فكاك منها، قد تسقط فِي حبِّ أشخاص لا مُبرِّر ولا منطق عقلاني لحبهم، قد تستنكر حبك لهم إذا فكَّرت به بقوانين العقل، لكن عندما يسيطر القلب، تجد نفسك تحيا بحبهم دون أدني قدرة على المقاومة..

ولهذا فإن أخطر لغة تواصل فِي الحياة الأولى هي

لغة العيون، هي نظرة واحدة يختل من بعدها توازنك، وتبقى مش عارف رأسك من رجليك، ولذلك أظن أن الأصل فِي الأمر الإلهي بغض البصر هو منع الوصول إلى

ذاكرة رحلة التاريخ الأوَّل.. النوع دا من الحب يصنع منك طفلًا ولو كنت كهلًا، ويجعلك تدور فِي فُلك العاشقين بعيدًا عن حدود المادة والجسد..

إنت متخيل كيف انهارت زليخة فِي عشق يوسف رغم أن كل الأحداث لو سارت بمنطقيتها لكانت إلى غير ذلك..

هو عبد وهي السيدة، كان عندها طفل صغير تتخذه ولدًا، مترفِّعًا عن المعصية رغم المغريات، القصر مليءٌ بغيره، وألف أمير يتمنَّى كلمةً منها، لكن اختيار الروح وقع على يوسف..

وعلى الرغم من كونها سببًا فِي دخوله السجن، فقد كانت سياط الجلَّاد تمزِّق نياط قلب زليخة؛ لم يتحمل قلبها الذي يسكنه يوسف فكرة تعرضه للألم، لتفقد السيطرة وتعيش حالة من المستحيلات المتجسِّدة، يفقد العقل السيطرة على الحياة، ويتولَّى القلب قيادة دفَّتها، لنتحوَّل جميعًا فِي حالة السقوط فِي الحب لمجرد أطفال حالمين فِي سن الثانية عشرة..

ثم أردف متسائلًا:

ممكن تقولي البنت اللي كنت بتحبها فِي تالتة طب كنت بتحبها ليه؟ عندك أي تفسير؟! دي كانت واقفة فِي آخر المدرج لابسة الفستان الأصفر اللي مرسوم عليه الشمس، مجرد ما عينك جت عليها اتكهربت واتحولت ولفيت وراها الكلية ألف سنة وزيادة.. هل عندك تبرير؟! هل هي البنت الوحيدة ولا الأجمل بينهن؟! هل كنت تعرف عنها أي حاجة قبل ما تشوفها كانت سبب إنك تحبها؟! هي دي حالة الحب الحقيقي.. ما دون ذلك ليس بحب..

"الحب المُسبَّب.. نحاس مُذهَّب"

قلت له وأنا أنظر من حولي:

خلاص يا يونس.. بلاش تسييح هنا.. مكانتش حدوتة عرفتها عني..

شيلي القهوة دي يا أماني...

(١٧)

استغرق يونس فِي التفكير كيف سيقضي كل يوم مثلما كان يشتهي فِي أيام الدنيا، وبينما جلست أتأمله طرأ على بالي سؤال مُلح:

- إنت كدا إزاي يا يونس؟!

- قصدك إيه بكده إزاي؟!

أجبته:

يعنى إنت كدا حي ولا ميت؟!

ردَّ يونس ضاحكًا:

- اتأخرت ١٦ يوم على السؤال دا، أنا فِي الحقيقة روح يونس، مش يونس نفسه..

- والهيكل دا هيكل مين؟!

- الهيكل دا له حكاية ظريفة، أنا قلت لو ظهرت لك طيف ممكن تتخض مني..

قلت ساخرًا:

منطقي، لكن هيكل داخل عليا بكفنه دا اللي عادي!!

قال يونس:

بما إني عارف إن تفكيرك بره الصندوق فكرت فِي حاجة كدا تشبه الخيال الممكن، روحت التُرب بتاعتنا وفضلت هناك منتظر يفتحوها مرة، الراجل التربي دا ابن جِنية تخيل كان بيتقاول على بيع هيكلي، الراجل كان بيبيعني وميعرفش إن روحي موجودة فِي المكان، أول ما طلع الهيكل روحت لابس الهيكل "وقلت يا فكيك" وهو صواميل مخه طارت من الرعب..

طغى فضولي على روح الدعابة التي سيطرت علينا،

قلت ليونس: صف لي كيف كان البرزخ؟!

أجابني: طريق ضيق جدًّا وكأنه دهليز، فِي نهايته نور وهواء وراحة، على طرف الدهليز المظلم يُسلَّم إليك التنور لتطلع على ما مرَّ وطواه النسيان، الغريب أن فِي هذه اللحظة يكون الإنسان فِي منتهى الاضطراب، عالم تاني، أفكار تانية، وحسابات غريبة..

تخيَّل لما واحد يعيش عمره كله فاكر إن الدنيا هي كل حاجة، وأكبر حلم، وفجأة يكتشف إن الوجود فِي الدنيا دي من البداية كان عقاب..

متخيل أول القصيدة!! لكن الأغرب بعد شوية وإنت بتتفرج على تنورك، تكتشف كم كنت غبيًا، جاهلًا، وغارقًا، عداد الحسنات والسيئات مش شغال، ومكتوب عنده ليس بعد، العداد بدأ العد وأنا فِي عمر إعدادي تقريبًا، الغريب إن الملاك قال يومها جملة أصابت قلبي برجفة غريبة "من اليوم أنتَ مُكلف"..

شُفت أول حسنة سُجلت فِي كتابي، كانت أمي راضية عني وبتدعيلي وهي بعتاني أشتري حاجة "إلهي يهديك ويصلح حالك" كنا غير مدركين إيه الصح من الغلط، كنا ماشيين بالبركة..

تعرف أخطر حاجة كان مفروض نتعلمها فِي الدنيا إيه؟!

سألته: إيه يا يونس؟!

النية.. أيوة النية هي جوهر كل الخير وأصل الثواب.. طبعًا فِي أعمال الخير والصح، فقد تؤجر على نية خير لم

تساعدك الحياة على تنفيذها، أو شر تراجعت عنه وغلبت شياطينك، الخسارة إنك ممكن تعمل ألف حاجة صح لكن تنسى تنوي إنها لله، والملايكة تقول من حولك

"يا ليته نوى أو تذكَّر بعدها فنوى"

النية عملت كتير لناس بسيطة، الحكاية مش بالكثرة خالص، يعني ممكن نية صالحة وإخلاص حقيقي،

حتى لو تصدَّقت بجنيه تلاقي العداد يجري يحسب لك حسنات مضاعفة، الغريب كمان في الحسنات والذنوب إن ساعات العداد يعد وإنت معملتش حاجة خالص،

أنا استغربت جدًّا، لكن لقيت مكتوب في التنور

ذنوب تعالي، كراهية أو بغض، كما أن هناك حسنات تُكتب دون عمل محسوس تندرج تحت بند تواضع وتبسط ومثلها..

زي ما قلت لك الكود بيفرق كتير..

واصل يونس ضاحكًا:

لقد اطَّلعت على بعض حياتك، ووصلني بعض من صدى أعمالك، مين ناهد، هدى، أوس أوس، نجفة والدرويش، بيسو وحسنولا، مين كل الناس دي؟!

أنا عاوز أقابلهم..

قلت له وأنا أتخيَّل الحدث: دي تبقى كارثة الكوارث..

قهقه يونس لما ارتسم على وجهي من تعبيرات..

إيه رأيك نبدأ ببيسو صاحب العمر، أو زي ما بتحب تناديه بيسو كلب السكك..

نظرت ليونس متعجبًا ليضحك بشدة، ويملأ صوته المكان مناديًا:

جهزي القهوة يا أماني..

ليقول لها مع ارتفاع صوت جرس الباب الذي يدق بإلحاح:

أنا هفتَح الباب، دا مش غريب، دا بيسو كلب السكك..

وكأن روح يونس استدعت روحه لكي يأتيه، فتح له الباب قائلًا بمرح وهو يفتح ذراعيه ليحتضنه:

ادخل يا غالي برجلك اليمين، ادخل دا إنت حبيبي..
وحبيب حبيبي..
ليسقط بيسو مغشيًّا عليه من هول ما رأى...

(١٨)

أفاق بيسو من الإغماء، نظر برعب ليونس وصاح:
بسم الله الرحمن الرحيم.. إيه دا؟
ابعدوا البتاع دا عني..
شرحت له القصة فِي عجالة، قبل أن تصل حسنولا والأولاد عمر وحمزة، واتفقنا أن نقول إنه إنسان آلي، حاجة كدا زي الصبارة الراقصة، لكن بيسوا كان غير مقتنع بالفكرة، وغير مطمئن ليونس على الإطلاق..

حضرت حسناؤه ومعها كل ألوان طيف الحياة، وقف يونس متيبسًا وكأنه لم ير نساءً من قبل، تمتم فِي ذهول دي حورية هربانة من الجنة بكل تأكيد..
صاح فيه بيسو بغضب:
اخرس لأحسن أقوم أكسر عضمك..

وضحكة عالية من حسنولا أصابت ضلوع يونس بتصدعات، قال بيسو وهو ينظر إليها غاضبًا:

اتلمي يا حلوة..

بابتسامة ملائكية ونعومة تذيب الصخر قالت له:

بتغير عليا من هيكل آلي!!

ردَّ عليها سارحًا فِي ملكوت عشقه لها:

ومن الهوا لو لمس خصلات شعرك..

صاح يونس بصوت عالٍ:

القهوة يا منااميزو.. "يقصد أماني"

اقترب بيسو هامسًا فِي أذني:

هي إيه الحكاية؟! هو أخينا دا حي ولا ميت ولا إيه؟!!

صوت أم كلثوم يملأ الآفاق وهي تشدو..

هات عنيك تسرح فِي دنيتهم عنيا..

هات إيديك ترتاح للمستهم إيديا..

يا حبيبي تعالى..

أخذ يونس يتمايل على الألحان العذبة، ومن حوله يتقافز الطفلان عمر وحمزة، صوت براءة ضحكاتهما تتعالى فتغطِّي على صوت طقطقة عظامه النخرة؛ وصوت الحنين الصادح فِي الكلمات والقلوب، لتبعث فِي المكان حياة لم يعهدها من قبل..

حسنولا نِفسها تقوم ترقص مع الهيكل، وبيسو يرمقها بنظرات تؤكد لها أنه جاهز لارتكاب مجزرة لو حاولت مُجرَّد التحرَّك من مكانها.. فيمنعها عن تحديه بعضٌ من عقل مازالت تحتفظ به..

كانت الغيرة فِي عينيه تنبئها كم يعشقها..

وكانت ابتسامتها ترديه قتيلًا وتؤكد أنها تعشقه..

جلس بيسو عن يميني وإلى يمينه قلبه النابض بالحياة، فِي حين جلس يونس عن يساري، جاءت أماني بالقهوة ليأخذها بيسو منها، وكالمعتاد يقول للحسناء:

دوقيها علشان تحلو..

أخذت منها رشفة وهي تنظر فِي عمق عينيه، ليتمتم بوله: كفاية كدا هتبقى معسلة بزيادة..

وضحكة خشبية من يونس يعقبها "صلاة النبي أحسن"

قال بيسو ليونس:

والنبي تبعد عينك عننا، إحنا لسه متصالحين إمبارح..

مال يونس ناحيتي ليسألني هامسًا:

هما من النوع الغيور قوي؟!

وشت ضحكاتي بالحقيقة وأكثر وأنا أردِّد:

بعيد عنك حريقة..

مال يونس ليقترب من بيسو، يشاكسه بكلماته وعينيه معلقة بحسنائه المتألقة دون وعي منها..

الراجل مننا مخلوق عينه زايغة، طالعة من راسه ماشية تستمتع بكل جميل، وما يملهاش غير التراب، يعني إحنا بنحب من النساء كل الأصناف، الطويلة والقصيرة، التخينة والرفيعة، البيضا والسمرا، علشان كدا الراجل محتاج واحدة تِلمه -آه والله لازم واحدة تِلمه- وأحلى ما فِي الحكاية لو تكون حلوة.. ويا بخته لو بتحبه، تبقى حاجة كدة جنان..

نظر إلى حسنولا وتأكَّد أن يرى بيسو تعبيرات وجهه:

واحدة قمر زي حسنولا كدا، ولازم تكون مجنونة..

صاح فيه بيسو وعيونه تنطق بكل معاني الشر:

بص فِي ناحية تانية.. واتكلم فِي اللي يخصك يا أخينا إنت وخلي يومك يعدي..

كانت حسنولا تصنع للحياة معنى، تلونها بألوان الربيع والسعادة، كنت أرى الراحة بعيون صاحبي الذي استطاعت ترويضه بعشقها، واضح إنهم إلى حد ما عرفوا طباع بعض واستطاعوا التأقلم عليها ليصلوا لمرحلة الاستمتاع بالشريك حتَّى سلبياته..

جاءت أماني التي تعلم طبع بيسو الجائع دومًا وبين يديها طبق عامر بسندوتشات تصبيرة حتَّى ينضج الطعام، أخذتها حسنولا منها شاكرة، تجلس بجوار زوجها لتطعمه بيديها كما تفعل لأطفالهما..

يقطع إلحاح جرس الباب تركيزي، تفتحه أماني التي تنظرني بنفاد صبر، تقف جانبًا ليدخل درويشي الغالي

ومعه نجفة، تلك التي ما إن رأت إطعام حسنولا لبيسو حتَّى صاحت بنبرة تورد المهالك:

"صلاة النبي أحسن" ولا زمان يا أوستاااذ بيسو..

يتصبَّب بيسو عرقًا، وتقف اللقمة فِي فمه وتتحوَّل لحجر بطعم العلقم تحت نظرات حسنائه الغاضبة..

ليقطع يونس الصمت ويقف فجأة ليرحِّب بنجفة التي أرعبها مظهره العظمي، لتتخذها زريعة وحجة مناسبة لتلقي بنفسها فِي حضني وتصرخ:

ياخرااابي.. ابعد البتاع دا عني يا أوستاااذ..

حوش عبيدك عن عبيدك يا رب...

(١٩)

اكتمل الجمع هاهنا الآن، لنجلس فِي حلقة وعلى رأسنا الدرويش الذي احتضنني ويونس عند وصوله واستقبله بترحابٍ شديد مُهلِّلًا:

"أهلًا بالأخ الصالح، والرفيق الصالح"

بعد التحايا والاستقبال الحافل، طلب الدرويش أن نبتعد قليلًا عن الجموع، جلس إلى جوار يونس كما الأصدقاء المقربون، هنَّأه بالفوز والنجاة ودعا الله أن يلحقنا به فِي صحبة الصالحين فِي جنَّات النعيم، ثُمَّ غلبه فضوله وشوقه فسأله:

هلَّا خبَّرتني عن أهل الخير من الصالحين، وعن الذين غلبتهم نفوسهم من التائهين، وأولئك الذين أسرفوا على أنفسهم من الخائبين..

قال يونس ببِشر:

هذا وربي كلام العارفين، المُدركين لمنازل البشر حين الوصول لأرض اليقين، قَبَّل رأس الدرويش، واعتدل فِي

جلسته وفتح التنور ينظر ما لا نراه بعيون عابري السبيل الذين لم تحن محطة وصولهم بعد..

أما بعد..

فإن لأهل الخير مقامًا لا يسبقهم إليه إلا المرسلين، وإنهم على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين..

يطوف عليهم ولدان مخلدون..

وإن عليهم من الجلال ما إنهم فيه وربي مُخلَّدون..

أما إنهم قد علموا وعملوا.. وظلوا وما ضلوا..

وكانوا فِي أهل الحياة الدنيا من المجهولين..

وإن اسمهم فِي الملأ الأعلى لمن السابقين المُقربين..

فأكمل الدرويش:

أما والله إنا لنحبهم أجمعين..

وما نحن منهم ولكننا عاملين..

فارفق اللهم بعبادك السالكين..

ولا تكتبهم من الهالكين..

وجُد علينا يا مولانا إنك أنت السميع العليم..

ثم أكمل يونس مُسترسلًا:

وأما الذين غلبتهم أنفسهم من الطائعين..

فأولئك الذين أسرفوا على أنفسهم وإن الله بهم لرحيم..

وما كتب الغفار أنهم من القانطين..

أولئك الذين عرفوا الحق وما نافقوا، لكن غلبتهم شهواتهم وكانت عليهم ردمًا فِي قرار مكين..

فأمَّا الذين أظلهم العفو فأولئك هم الناجون..

وأما الذين استكبروا عن الحق لما جاءهم فأولئك الذين كتب ربهم عليهم أنهم فِي النار خالدين..

لهم فيها شهيق وزفير وما هم منها بمخرجين..

فأكمل الدرويش:

أن نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم..

ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين..

هام الدرويش مأخوذًا بكلمات يونس القيمة، وطلب منه أن يخبره بما لديه عن الخروج..

اتَّسعت ابتسامة يونس وقال:

من أجل ذلك كتبنا..

فقال الدرويش:

صدقت.. أما والله إنه الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا اعتدنا..

أردف الدرويش سائلًا:

فكيف وجدت قيمة الحياة الدنيا فِي مسيرتك عند الوصول؟!

قال يونس:

دنيا.. إذا كست أوكست..

وإذا دنت أودنت..

وكم من مَلِكٍ رُفعت له علامات، فلما علا مات..

أما والله إنها لعب وتفاخر..

فأكمل الدرويش:

طوبى لمن غلبها يوم جاءته..
وتركها يوم أظهرته..
وبكى من الله خشيةً يوم رفعته..
طوبى للسالكين طريق الله حتَّى يلقوه..
طوبى للذين عرفوا المراد، فاتبعوا طريق العباد..
طوبى لمن كان فيها من الزهاد..
طوبى للغائبين وإن حضروا، المجهولين وإن ظهروا..
طوبى لأهل الظل هاهنا.. أولئك النجوم الساطعة فِي الملكوت..
ثم قال الدرويش ليونس مستبشرًا:
أخبرني عن الجنة، كيف وجدتها حين بُشِّرت بها؟!
ردَّد قائلًا:
فيها ما لا عين رأيت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. ماؤها عذب.. وترابها رطب..
ونورها ظل نور العرش..

فأكمل الدرويش:

والصحبة الحبيب ومعه أصحابه الميامين..

وسوق الرحمن يوم يكشف عن ساق

ولهم فيها ما يشاءون ولدينا مزيد..

أولئك الذين سبقت لهم الحسنى

ووالله لا نرضى حتَّى تنالنا الزيادة

أما والله ولا الفردوس الأعلى حتَّى أراك..

فإن نور وجهك خيرٌ من كل ذاك...

(٢٠)

ارتبطت منذ أسابيع بوعد لحضور حدث طبي مهم، وجاء يونس وحضوره الدرامي وإصراره على الوجود بصحبتي أينما ذهبت ليكون مُعضلة تحتاج مني لحلٍّ مناسب بالتأكيد.. فهذا مؤتمر طبي يضم نخبة النخبة من الأطباء فِي كافة التخصصات، ووجود يونس بصفته هيكلًا آليًّا لن تخدعهم ولو للحظات قليلة، خاصَّةً مع تخيل يونس أن وجوده فِي الحياة بهذا الشكل شَيْء طبيعي مُستساغ، وخروجه، وتعاملاته مع الأحياء من البشر لا غرابة فيه، وكأن الموتى الأحياء يمرحون فِي الطرقات هنا وهناك..

استعنت بالله على صحبتي الغريبة بكل المقاييس، والتي بدأتها من منزلي بصحبة يونس، لينضم إلينا فِي قاعة المؤتمرات أوس أوس -زميل الدراسة حين كنا أطفالًا ومجرم على ما تُفرَج فِي الوقت الحاضر- وزوجتاه ناهد -الراقصة اللولبية وعروس أوس أوس الجديدة- والمِعَلِّمة هدى -الزوجة القديمة على درجة تاجرة مخدرات قد

الدنيا- والذين علموا بالحفل وتكريمي المُنتظر فِي ليلته الختامية من صفحتي على الفيس بوك اللعين، ليكون القرار بالحضور ومشاركتي فرحتي بالتكريم، ثُمَّ يأتي مسك الختام بحضور الدرويش الحبيب وبصحبته نجفة بكل تأكيد، فقد باتت صحبتهما الدائمة انعكاسًا لوَجهَيْ عملة الحياة المتناقضة دومًا..

بدأ المؤتمر بشكل طبيعي كما المعتاد، ليتحوَّل الحفل الأرستقراطي إلى ورطة كبيرة حاولت السيطرة على أحداثها والتعامل معها بكل الحرص للخروج منها بأقلِّ الخسائر الممكنة..

ومع كل محاولاتي فأنا حقًّا فِي ورطة كبيرة..

يونس مُتخيِّل إن من العادي التجوُّل فِي الطرقات بهذا المظهر المرعب، حاولت إقناعه بأن يختفي خلف الكواليس ليتابع الحفل من مكمنه حتَّى يمر بسلام، أوس أوس وزوجتاه يكفي مظهرهم ليكون وصمة عار لمن يعرفهم فِي هذا المجتمع المخملي، أما الدرويش ونجفة فكانا كمن أقحم لحنًا صوفيًّا وآخر شعبيًّا وسط

سيمفونية لبيتهوفن تُعزف بدار الأوبرا، لكنها ترتيبات الأقدار التي مكنَّتني من السيطرة عليهم جميعًا..

مع بداية الحفل نادى المسئول على اسمي لأصعد إلى منصة التكريم وأمارات البشر والسرور تعلو وجهي، لأُفاجَأ "بزغروطة حلوة رنِّت فِي بيتنا" تُصاحب خطواتي حتَّى أوشكت على التعثر والسقوط، إنها نجفة بلا أدنى شك، التفتُّ لأراها تقف فِي وسط القاعة تتلألأ فِي الجلابية السمرا إياها التي يقف عليها الطاووس المشغول من الترتر الأحمر مزهوًّا، تعلوه فتحة كان من صنعها كريمًا بزيادة فكشفت أكثر مما أخفت..

ليصرخ بعدها أسامة أو "أوس أوس" فِي زوجتيه وينهرهما لتقصيرهما فِي الاحتفال بصعودي المنصَّة، ويبدأ بالتهديد بصوته الجهوري "زغرطي يا ولية منك ليها لأحسن عليا الطلاق تبقوا طالقين".. فما كان من ناهد التي أسرعت بالوقوف إلى جانبه إلَّا أن غمزته وهي تتصنَّع الدلال قائلة:

وأهون عليك يا أوسو!!

ليهز رأسه بالنفي ويقترب منها فِي مشهد أقرب للتحرش فِي مكان عام ويقول وهو يعض على شفتيه "دا إنتي الحتة الشمال يا بت" بس برضه دا عبده صاحبي وزميل تختة واحدة..

مرَّت لحظات استلامي الدرع وشهادة التقدير وتلقِّي التهنئة من الزملاء كساعات أصيبت عقارب ثوانيها بالشلل، استدرت أخيرًا للنزول لأجد أوس أوس وقد وقف لاستقبالي عند نهاية درجات المنصَّة، ويسرع لاحتضاني قائلًا:

- ولا لها أي تلاتين لازمة، المهم إنك تستاهلها.. لتسرع ناهد لتبارك وتحاول التغطية على كلمات زوجها الفجَّة..

- والله طول عمري أقول عليك سِيد الدكاترة..

في حين انشغلت المعلمة هدى بلف "جوان" لتدخنه وتنسى مرار الدنيا والغيرة وضرتها التي ترميها بنظرات لو كانت سهامًا لسقطت قتيلة فِي لحظات..

أسرعت نجفة باتجاهي فاردةً ذراعيها وهي تقول فِي سعادة ممزوجة بأشياء أخرى:

والله إنت تستاهل ميت بوسة، وحضن كبير قد الدنيا..

حاولت تجنب الوقوع بين ذراعيها، وهمست لها من بين أسناني "اعقلي يا نوجا"، لتسكتني مفاجأة من نوع آخر حين تحوَّلت الموسيقي الكلاسيكية التي صاحبت التكريم إلى صخب أغنية من الزمن الجميل، وبلا أي مقدمات بدأت نجفة فِي وصلة رقص بلدي من اللي يودي اللومان، وهي تركز ناحيتي نظراتها وإيحاءاتها، والحضور يركِّزُون عليها وإلى من تنظر!!

"وهوبا فِي الكلوبًا" ها هي ناهد تدخل الحلبة، وتتسابق لتفوز بالصدارة، ولكونها محترفة وصاحبة خبرة فِي المجال فقد وقفت نجفة تنظرها بعيون تطلق بارودًا، ليتعالى صوت هدى التي جلست تغلي وتفور كما البركان وتصيح فِي أوسامة:

يا زين ما اخترت.. حاجة تشرف يا بيه، متجوز رقاصة!!

ليرد عليها بسخرية تحت سمع ونظر جميع الحضور المتابعين بشغف هذه الفقرة الكوميدية المرتجلة:

- الله يرحم أمك طنط أم هدى.. كانت فاتحة كُتَّاب بتحفظ فيه القرآن..

أومال لو مكانتش ماتت فِي السجن وهي بتقضي حكم آداب؟!! خليني ساكت أحسن..

أخذ الدرويش ينتقل ببصره من هذا لتلك، مستاءً مما يحدث أمامه، ثُمَّ قرَّر الابتعاد قليلًا عن صخب الدنيا وزُخرُفِها، فاتَّخذ فِي أقصى القاعة مُستَقرًا حتَّى حين، توجَّهتُ إليه بعد قليل لأرتوي بفيض كلماته، لتنساب من بين شفتيه قطراتٌ من رحيق مختوم:

لا يغرنَّك المدح وإن كَثُر..

ولا تهزأن بقدح وإن صَغُر..

إن الذين توجوك إنما توجوا المنصب..

وكان التتويج لينال أي فرد حل محلك..

لا تشغلنَّك نظرات الرضا ولا كلمات الترحيب..

العاقل من اتعظ بغيره، وأدان نفسه قبل أن تُدان..

وكتم فرحة مالها فِي الآخرة من قرار..

اعلم أنَّ المدح ذبح..
وأن أول طريق الشيطان الرضا عن النفس..
طوبى للمجهولين فِي الأرض المعلومين فِي الملكوت..
إيَّاك أن تصدِّق فِي نفسك ما يقولون
فأنت أدرى الناس بنفسك..
ضع أعمالك على الميزان الحق
فإن موازين الشكر غير موازين الذكر..
وانزع من قلبك حبَّ شكر الدنيا
وازرع فيه حبَّ ذكر الآخرة..

طوبى لعباده الذين غلبوا أنفسهم ولم تغلبهم أهواؤهم..
طوبى للأنقياء البسطاء الصالحين..
أولئك ينادون فِي الملكوت مع النبيين والصديقين والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا..

كان يونس خلفي يضحك بصوت مُحشرج، نهرته بأن ليس فِي الأمر ما يُضحك، فنفى قائلًا "أنا أبكي من شدة ما مسَّت كلماته قلبي ونفسي، لكن الصوت متقارب، والله ما نطق إلا بالحق.. ذكَّرتني كلماته بيوم حُوسبت على يوم ترقيتي لمنصب مدير عام، وكيف شكرت أقوامًا من طرف لساني وأثنيت على من لا يستحق الثناء، لن تتخيَّل شعوري بالعار والخجل عندما سُؤلت عمَّا دفعني لهذا النفاق، وكيف أُرجع الفضل لمن لا يستحقه!!

كانت نجفة وأوس أوس وزوجتيه قد وصلوا إلى جوارنا ليقول أسامة:

- إحنا عاوزين نتعشى عند أبو علي بتاع السمك، بيقولوا عنده شوية جمبري عنب اللوز.. ونظرة متبادلة غير مريحة بينه وبين ناهد زوجته أعقبها بقوله:

- الليلة ليلتك يا نونا..

لتقف نجفة وتمصمص شفتيها وهي تنظر إليَّ وتقول:

ناس لها بخت.. وناس لها الأوستاااااذ...

(٢١)

وبينما هم يحفرون.. خرج صوت سمعه العامَّة، الخاصَّة، وكل عامل وعابر سبيل، حتَّى الكائنات الرابضة فِي جحورها "هذا سرداب الملك المعظم"..

هنا توقَّف كل شيء، حتَّى حركة الهواء، وصوت الطيور وحتى السماء ظلَّلتها غمامة من نور أخضر، منعت عنَّا جميعًا ضوء الشمس..

صوت ارتطام سن الحفار بقطعة صخرية من فولاذ العالم الآخر تتسبَّب فِي كسره، بعد أن ترك خلفه فتحة لعالم عجيب، حتَّى أن نورًا يشبه نور خمائل الزبرجد، قد ظهر من باطن الأرض..

إننا الآن على مدخل المدينة الآثمة، تلك التي ضربها ملاك الرب بجناحه فأصبحت فِي عداد المفقودين..

هذا هو باب السرداب المؤدِّي إليها..

هنا تُذبح القرابين.. وهنا تَحلُّ اللعنات..

خطوات فِي الزمن القديم، فِي المدينة المفقودة تحت سفح الهرم، حيث نُقش فِي قديم الزمان أنه عندما يصل الحفَّار إلى أول السرداب ستأتي ريحٌ حمراء من قِبل البوابة الشرقية للمدينة، وسيكشفُ القاع الغاضب

عن تاريخ الأمم الملعونة..

من هنا سيُكتب التاريخ مرةً أخرى..

هنا مملكة أحفاد الجِن والمن، من سكان الأرض الذين سبقونا..

كانت هذه كلمات يونس عندما رأى حفر المعدات لأنفاق المترو فِي قلب شارع الهرم...

(٢٢)

جلست على واحد من المقاهي العريقة فِي منطقة وسط البلد مع صديقي حسين اللي لسه مطلق زوجته من ساعتين تلاتة، أحاول تخفيف وقع الحدث عليه، لعل شيطانه ينصرف ويعود لبيته، يونس بصحبتي كالعادة لا يفارقني حتَّى أصبح محطَّ أنظار الرائح والغادي، مثيرًا للفزع لأول وهلة ثُمَّ لكثيرٍ من الأسئلة عن هذا الهيكل الإلكتروني المُستورد من أجل أبحاث طبيَّة والذي للفكاهة أصطحبه معي أينما ذهبت..

دقائق مرت فِي حوارات مختلفة قبل حضور الدرويش، وطبعًا بصحبته نجفة..

طلب يونس شيشة تفاح وجلس بجواري لأستمتع بدخانها، وطلبت نجفة فنجانًا من القهوة معه حجر معسل قص وصاية لزوم عدلة الدماغ والروقان -هكذا قالت-.

في حين طلب والدرويش كوبًا من الحلبة الحصى، وكوبين من اليانسون لي ولحسين، ليبدأ حوارٌ بين

الجالسين وحسين بين مؤيد ومعارض لقراره، كان رأي الدرويش الذي أصرَّ عليه "إن حسين استعجل فِي قراره" فِي حين يرى يونس أن الدرويش بمثالياته البائدة "عايش فِي مية البطيخ"، لتتدخَّل نجفة وتدلو بدلوها فِي المسألة، لتنتقل نظراتها بيني وبين حسين وتقول بدلال زائد وإيحاءات غريبة: هو الراجل لو ملقاش صدر حنين، إيه اللي يغصبه على العيشة دي؟!

ليقاطعها الدرويش بنظرة عتاب، ويتوجَّه بحديثه لحسين الذي يسرح بعينيه فِي ملكوت آخر مع نجفة: هو صنف الستات كدا سريع الغضب، لكنهن بنصف عقل، وكان المفروض إنك صاحب العقل لتُحسن التصرف، أومال ربنا جعل العصمة فِي إيدنا ليه؟!

قاطعه يونس معترضًا "ما هي العصمة يعني القوامة لينا، يعني الاحترام والتقدير"، لتشد نجفة نفسًا عميقًا من حجر المعسل وتقول بلحن مشبوه "الصدر الحنين"

نظر حسين إلى نجفة مُتفحِّصًا، عاوز يفهم إيه حكاية "الصدر الحنين" دي!! اقترب مني بزيادة ليسأل بهمس خفيض:

البت دي تخصك فِي حاجة؟!

أجبته بلامبالاة "لا ماتخصنيش يا حسين".. ليتساءل بفرح طفولي: يعني مفيناش من زعل لو شقطتها؟!

تعالى صوت ضحكاتي ليملأ المقهى، حسين خام بزيادة وعايز يبدأ سلم الضياع من الآخر..

انتقل بكرسيه بجوار نجفة يقول لها بصوت مريب "أهم حاجة الصدر الحنين"، ليسحب يونس نفسًا من الشيشة التفاح ويخرجه من بين ضلوعه فِي منظر عجيب ويتمتم "أكيد فِي حاجة غلط، فينا بقى ولا فِي الستات، لكن اللي بيحصل دا مش طبيعي بالمرة"..

طلبت منه توضيح مقصده، ليتابع..

مستحيل تكون دي الحياة، إحنا بالحرف الواحد خسرانين دنيا ودين، واللي يغيظك ويكيدك إنهم شايفين نفسهم مظلومين وكل الرجال "مصطفى أبو حجر"،

جنس النسا دا جنس نمرود، ثُمَّ التفت إلى نجفة التي ضاقت عيناها تنظره بغضب ليسرع ويتدارك موقفه بضحكة مدوية "مش كلهم طبعًا"..

أسكتتنا كلمات الدرويش لننصت له:

إحنا صنفين، جنسين مختلفين، أو يمكن القول كائنين يجوز بينهم التزاوج، لكن إحنا مش نوع واحد أبدًا..

مش مهم أبدًا مين فينا الأفضل، فكل صنف فيه بذرة الخير الملائكية ونبتة الشر الخالص، لكن الحقيقة المُطلقة إن الرجالة كائن والستات كائن تاني خالص، والمشكلة الضخمة إننا بنتعامل مع الآخر على إنه من نفس النوع بتاعنا.

كنت أستمع لكلمات الدرويش وأقول فِي نفسي "والله الدرويش عنده حق"، إحنا بالعلم نفسه نوعين وتركيبتين مختلفتين، وعلى الرغم أن العلم أكد داء، لكن إحنا إزاي مخدناش بالنا..

أكمل الدرويش كلامه:

إنت مشكلتك يا حسين إنك عاوز مراتك تشوفك بعيون راجل، وتفهمك بطريقتك، ودا مستحيل.. والعكس صحيح هي كمان عاوزاك تحس وتفهم بطريقتها كأنثى، ودا كمان من المستحيلات..

المرأة كائن عاطفي بطبعه، ودا مش معناه إنها كائن طيب، لا طبعًا ممكن يبقى عاطفي مجنون أو شرير..

والراجل كائن عقلاني بطبعه، وبرضه ممكن يكون شرير..

المشكلة فِي لغة الحوار، إنت ممكن تكون راجع من يوم عمل مزعج، كل اللي فِي بالك الجرد السنوي أو الخطة السنوية، أو حاجة إنت شايفها مهمَّة جدًّا، لكن هي كل تفكيرها إنك أكيد مشغول بالتفكير فِي واحدة غيرها؛

بدليل إنك مخدتش بالك إنها غيَّرت لون شعرها..

كان الغضب قد استبدَّ بجميع الحضور حتَّى نجفة..

انفعل حسين:

يعنى أعمل عملية واتحوِّل لست علشان أفهمها!!

تبعه يونس متهكمًا:

أنا قلت لكم دا عايش فِي مية البطيخ..

بينما اعترضت نجفة وهي تمصمص شفتيها:

دا إحنا الصدر الحنين..

وتبادلت مع حسين نظرةً، كان كل تركيزه فيها على الصدر الحنين وهو يهز رأسه مغمغمًا "هو دا أهم حاجة طبعًا"..

وجَّهت حديثي وتركيزي للدرويش متسائلًا عن الحل لهذه المعضلة الإنسانية، ليرد حسين مُتعجلًا:

الطلاق هو الحل.. هو صمام الأمان للحياة الكريمة،

الحرية أهم وأعظم مليون مرة من جوازة فاشلة تقضي مدتها بين أسوار سجن تكون زوجتك فيه سجَّانك..

ليأمن صوت أم كلثوم على كلماته شاديًا..

أعطني حريتي أطلق يديَّ..

إنني أعطيت ما استبقيت شيئًا..

آه من قيدك أدمى معصمي..

فلِمَ أُبقيه وما أبقى عليَّ!!

يرتفع صوت يونس..

الله.. الله يا ست.. كلام ع الجرح وفي ميعاده تمام..

قالت نجفة وهي تنظر ناحية حسين الغلبان الذي عَلِق فِي شباكها بكل الرضا..

كلام إيه دا بس.. دا أهم حاجة فِي الدنيا كلها...

وقبل أن تكمل جملتها، أكمل حسين ويونس فِي صوت واحد..

الصدر الحنين...

(٢٣)

اعتاد الدرويش زيارتي فِي المستشفى حيث أُجري العمليات فِي الآونة الأخيرة، حتَّى اعتاد على حضوره الطيب العاملون بالمكان وزائروه باختلاف طبقاتهم، زال عنهم التعجب من صحبتي لمثله، ولم تعد كلماته وحديثه الغامض يسبِّب لديهم أي مشكلة كما حدث فِي البداية، بل بدأ بعضهم يتفاءل بوجوده ويطلب منه الدعاء والبركة..

خرجت من غرفة العمليات لأجده يجلس على الكرسي المقابل لها بانتظاري، أسرعت إليه أحتضنه كما اعتدنا، جلست بجانبه أسأله عن أحواله، وأي ريح طيبة حملته إليَّ اليوم، لِأُفاجَأ بفتاةٍ شابَّةٍ تُقبل علينا مسرعة، تخاطبه "عاوزاك يا مولانا فِي حاجة مهمَّة قوي"، أسرعت بالسؤال نيابةً عنه:

عاوزة الدرويش فِي إيه؟!!

فاعترض على تدخلي بابتسامه "مش من حقك تسأل غيري عن حاجته لي"، ثُمَّ تنحَّى بها جانبًا وسألها:

خير يا بنتي عاوزة مني إيه؟!

فقالت بهدوء وبابتسامة رقيقة، مش عارفة أبدأ منين وعاوزاك تدلني على أول الطريق الصواب، أضاء وجهه بابتسامة رائعة وسألها بتصلي وتصومي؟!

قالت مستغربة سؤاله طبعًا.. وهل من مسلم لا يصلي ويصوم ويحرص على فروضه!!

أجابها بنبرة مُطمئنة لنفسها اللوَّامة: إذن أنت على الطريق الصحيح..

تابعت طالبة للمزيد من القرب، تسأله خارطة مضمونة تسير على نهجها، حتَّى لا تتلاعب بها شياطين الظنون..

"أنا مش عاوزة أبقى رابعة العدوية، لكن أنا بحب ربنا جدًّا، وبحلم إني أنول رضاه، وأخشى أن زادي قليل، والرحلة كلما طالت زادت عثرات الطريق، فدلني بكلماتك الطيبة عن أضمن الطرق إلى مَعيِّتِه"

أوشك النهار أن ينتهي، أخذت بقايا نوره تستسلم لحبَّات الظلام القادمة لتحتويها، مع وعد بأمان ننتظره مع خطوط الأمل الأولى، مع كل ولادة لفرصة جديدة للحياة ولو كانت مُجرَّد ساعات قليلة، أقبلت معها كلمات الدرويش لتبعث الطمأنينة فِي النفوس الحائرة:

اعلمي يا بُنيَّتي إننا كلٌّ على الطريق..

منَّا من عرف، ومنَّا من غرف، ومنَّا من ذاق..

ومنَّا من غلبه مرُّ المذاق عن إكمال الطريق..

العاقل من قطع كل الطريق فِي وقت نهاره..

إن الظلمة التي تُغطِّي الطريق يستحيل معها المسير..

طوبى لمن شغله الوصول لا الحصول..

طوبى للسائرين على الطريق جماعاتٍ كانوا أو فُرادَى..

طوبى لمن لم تشغله الجموع عن صدق المسير..

طوبى لمن كان وحده نورًا ولو عمَّ الظلام..

طوبى للغرباء..

أولئك الذين لم يشعروا بغربة؛ لأنهم فِي المعيَّة..

طوبى لمن باع نفسه فصار عبدًا لسيده..
طوبى لهؤلاء الذين انشغلوا برضا سيدهم عن راحتهم
طوبى لهؤلاء الذين رضوا من سيدهم بالعطاء وإن قلَّ فِي أعينهم..
أولئك الذين كُتبوا فِي الألواح وقليل من الآخرين..
إن أول الطريق أن تتخلَّى عن نفسك
ثم تتخلَّى عن طلبك
ثم تكون بلا حُجب ولا شُهب
ثم تخلُّوا فتحلُّوا..
إن أوَّل الطريق أن تدرك الطريق
وألَّا يشغلك المخالفون وإن كثروا..
طوبى لمن أراد الحق فأصابه ومن ترك الباطل باجتنابه..
طوبى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد..
طوبى لأولئك الذين كانت آخر صفحاتهم ثُمَّ تكون العاقبة لنا..
إن أول الطريق إعداد الزاد وتخفيف الحِمل..

قوة الظهر وإخلاص النية..
رغبة التوبة والإصرار على الوصول..
إن الطريق طويل على الكسالى
لأنهم يشعرون فِي الطريق بغربة..
قصير جدًّا على السالكين
لأنهم فِي معيَّة الكريم وصحبة الحليم..
فإنهم قالوا فِي أول الخطوات
اللهم أنت الصاحب فِي السفر..
فما بالك أن يكون الصاحب فِي الرحلة
رب الطريق ومليكه ومالك الرحلة!
إنه صانع الطريق ومُذلل عثراته..
وصانع الزلات وتوبتها، ومُقدر التوبة ومانحها..
إن أول الطريق صحبة صاحب الطريق
وإن صاحب الطريق ينادي هلمُّوا إليَّ عبادي..
إن الذين أسلموا أنفسهم لصاحب السفينة نجوا..
وأولئك الذين آووا إلى جبل العقل هلكوا..

إن الذين ركبوا فِي السفينة كانوا الناجين
وإن كانت السفينة فِي بطن الصحراء..
إن الذين آمنوا ركبوا رغم غرابة الأمر..
لكنهم هم الذين نجوا لما جاء الأمر..
وبعد طوفان الدنيا يكون الأمر
أن يا أرض ابلعي، ويا سماء أقلعي
وغيض الماء.. وقُضي الأمر..
وقيل بُعدًا للقوم الظالمين..
ثم ينادي منادٍ لأولئك الذين سلَّموا أنفسهم لسيدهم..
أن اهبطوا منها بسلامٍ منَّا وبركات...

(٢٤)

حلَّ يوم الجمعة علينا ضيفًا مباركًا، ومعه لقاء عائلي خاص جدًّا يحضره كل الأحبة، الدرويش ونجفة، يونس الغالي، واكتمل الجمع ببيسو وحسنائه..

انقضت ساعات فِي استقبال حافل، ومائدة عامرة، وأحاديث تطول وتقصر عن الدنيا وحالها وكيف مقامنا بها، حتَّى جاء سؤالي ليونس عن أعظم ما وجد فِي الدنيا من نِعم، ليجيب بثقة وبكل الهدووء:

راحة البال..

فسألته مُتلهفًا الحصول على مفتاح الوصول لها، وكيف تكون، وأي ثمن ندفع فِي مقابلها؟!

هنا لم يستطع الدرويش صمتًا، وجاء سؤاله ألم تقرأ قول الله تعالى عن المؤمنين {إنه كفر سيئاتهم وأصلح بالهم}، ليكون علامة ودليل على أول الطريق.. أخبرني أن صلاح

البال من صلاح المآل، وإن طريق الصلاح أوله صلاح النفس، ثُمَّ إصلاح الغير..

قاطعه يونس مُعترضًا فهو القادم من حيث ننتظر جميعًا الذهاب يومًا، ومن خاض التجربة بشهدها ومرِّها حتَّى النهاية، وعلم كيف يكون المخاض كأعظم ما يكون الألم حتَّى تولد من جديد..

وجَّه كلماته للدرويش: إنت عندك كل حاجة سهلة، القصة مش بالبساطة دي أبدًا، إنت وسط بحر الملذات سهل جدًّا تغرق، المقاومة صعبة جدًّا مهما تخيَّلت إنك قوي الإيمان، فلا تأمن مكر نفس أمَّارة بالسوء تتحد مع شيطانك لتوردك المهالك..

قطعت نجفة حديثه بطريقة رخيصة تعرض فكرة أرخص، مرفقةً كلماتها بضحكة رقيعة:

وتقاوم ليه؟! هو فيه أحلى من الملذات؟!

نظرت إليها غاضبًا، وأشرت إليها أن تصمت فنحن فِي مجلس نلتمس من ورائه قربًا من الفوز، وليس خوضًا فِي أوحال الخطيئة..

تابع الدرويش بعد صمتها المُكلَّل بالخزي..
تذهب الملذَّات ويبقى ألمها..
وتذهب الآلام ويبقى أجرها..
من قال إن المُقاومة سهلة؟!
أنت تُقاوم نفسك الأمَّارة بالسوء..
تقاوم هواك، وتقاوم شياطين الإنس والجن..
لكن حين تُدرك الفرق بين الجنة والنار
بين ملذَّات الدنيا وعقاب الآخرة..
حين تَزن ثواب الآخرة مقابل صبر الدنيا وقتها ستدرك أن الثمن الذي دفعته فعلًا أبسط مما تتخيَّل..
ثم أردف:
مشكلتنا جهلنا، وجهلنا سببه قلة علمنا، وأحيانًا علمنا

اللي ضد راحة بالنا ورغباتنا، فبنتغاضى عنه، ونكون أسوأ من الجاهلين..

اعترضت الحسناء التي لا يناسبها هذا المقام ولم تعتد حضور مثله من قبل:

أنا مش فاهمة أي حاجة، كلام الألغاز دا بيعصبني..

استغلَّت نجفة كلماتها وأكملت تصدق على اعتراضها:

ربك رب قلوب ومادام هنا كويس -وأشارت إلى فتحة صدرها- فربك غفور رحيم..

اعتدل الدرويش فِي جلسته، وعلت نبرة صوته:

إن الأغنياء الجهلة كالفقراء الجهلة..

وإن الصالحين الجهلة كالطالحين الجهلة..

وإن العاهرات عن حاجة لا فرق بينهن وبين العاهرات عن رغبة..

إن الذنوب قروءٌ ثلاث..

ذنوب أنفس.. وذنوب عباد.. وذنوب كفر..

فأولها لا يعبأ الله به..

وثانيها لا يتركها الله حتَّى يقتص لصاحبها..
وثالثها لا يغفرها..

إن امرأة دخلت النار فِي هرةٍ حبستها..
وعاهرة دخلت الجنة فِي كلب سقته..
وما كانت تظن الأولى أن النار مثواها..
ولا يومًا ظنَّت العاهرة أن الجنة مأواها..
إنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون..
ثم نظر إلينا جميعًا مُتسائلًا من منكم يعرف ربَّه؟!
تداخلت الأصوات حتَّى أصبحت لا تتمايز "كلنا نعرف ربنا"، مَن مِنَ البشر لا يعرف ربَّه؟
هزَّ رأسه معترضًا، ثُمَّ جاءت كلماته لتعود بنا لما سبقها من صمت ثقيل، وأخذ كلٌّ منَّا يفكِّر فِي جملته بطريقته "إنَّما هي معرفة التائهين.. أولئك الذين غلبتهم دنياهم عن أُخراهم"
ثم بدأ فِي الكلام...

(٢٥)

دعوة تلقيتها من إحدى سيدات المجتمع المخملي، حفل تقام فعالياته فِي فندق Seven stars فِي التجمع الخامس، يضم الصفوة أصحاب المال والنفوذ..

صُدمت السيدة ضياء الحق صاحبة الدعوة -والتي كانت بانتظاري ومجموعة من سيدات المجتمع المهتمات بتخصصي الطبي- بحضوري ومعي الدرويش ونجفة ويونس وفريقي المجنون كله..

كانت جد راقية إذ أحسنَت إليهم وسمحت لهم بالدخول وحضور الحفل على الرغم من النظرات المصدومة من مظهرهم الغريب، وجمعهم المتناقض ما بين الرقي لبيسو وحسنائه، والزهد والتقشف الذي يتمسَّك به الدرويش، والمظهر الشعبي الغريب لنجفة، وأغربهم هذا القادم من البر التاني لم يتبقَ منه سوى بعض العظام التي تجلجل كلما تحرَّك لتلفت الأنظار..

المكان مُلبَّد بغيوم الأغنياء وأنا أعرف الدرويش وطبعه الكاره لهذه الدنيا الموغلة فِي دينونتها، بل يرى جُلَّ أهلِها

من التائهين.. والذي يُصرُّ على وصفهم دومًا بأنهم الذين شغلهم الألماظ الفالصو عن أندر الماسات.. جلسنا فِي لوبي الفندق المزدحم بالحضور، كوكتيل يوحي بالغرابة بلا أدنى شك.. غرباء فِي كل شيء.. شكلًا وموضوعًا.. وغالبًا غير مُرحَّب بوجودنا عند الجميع، اللهم إلا السيدة الفاضلة ضياء الحق، ومؤكد أنني الوحيد المُرحَّب به عندها، لكن "علشان الورد يتسقي العُليق" كما ترجم الدرويش محاولاتها للتصرف بلطف..

كل الناس هنا تلبس وتتكلم براندات، ليكون مظهرنا فِي وسطهم كلنا كدا على باب الله..

وقفت نجفة فِي وسط صالة الاستقبال تُقلِّب بأعينها فِي كل النساء والرجال.. فأما الرجال فكلهم مُز بصحيح، وأما النساء فكلهن فِي عيونها "عِيرة وسيليكون والرك ع القالب" لكنها كانت تشعر تحت أضواء هذا المجتمع بالعُري والضآلة، أنها قد جاءت من قاع قاع رزيلة الفقر لتتوه بين غيابات هذا الثراء الفاحش..

أشارت السيدة ضياء بسبَّابتها بخفة ليأتي النادل مسرعًا يعرض علينا خدماته، لتخصني بعدها بالسؤال

تشرب إيه يا دكتور، وضيوفك؟

كانت تنظرني كضيف مُرَحَّب به، وتنظر الباقين على أنهم مجموعة من المرتزقة أو المشردين، والصدقة عليهم واجبة، لكن من بعيد لبعيد، وقفت أراقب ردود كلِّ فردٍ منهم على حدة، كنت أراقب هذا اللقاء، سمعت حسنولا تطلب لنفسها "لاتيه فابريانوا شوجار فري" ليردد بيسو خليهم اتنين..

تُمصمص نجفة شفتيها متهكِّمة على ما سمعت ولم تفهم

"حبة شاي فِي الخمسينة يعدلوا الدماغ، أصلي صدعت من الهيصة الكدَّابة دي"..

وقفت أراقبها وهي تفتح زرارًا زيادة من زراير صدرها الغافي على أسرار ممالك الفقر، تدخل المنافسة بما تملك من مفاتن تعلم تأثيرها جيدًا فِي مقابل بريق الماس ولمسات جرَّاحي التجميل فِي نحت نسخ مكررة من

المانيكانات، تهلَّلت أساريرها حين مرَّ راجل كُبَّارة ستيني النزعة، كان يسكن الجيَّارة قبل أن يصبح سارقًا عظيمًا، ليرشقها بنظراته المتحرِّشة وهو يردِّد:
حتة بلدي فِي الجووون.. العبي يا ألعاب..

أما أنا فلم تعطني السيدة ضياء الفرصة للاختيار، وأسرعت تقول "سيبني أختار لك على ذوقي"، أومأت بالموافقة، مع استثناء الشاي والقهوة وما يشبههما، لأنهم بيغيروا ضربات قلبي.. سارعت تقول بلهفة "سلامة قلبك يا غالي"، لتتوالى ردود الأفعال التي بدأتها نجفة حين صاحت منزعجة "طبعًا غالي علينا كلنا"، أما بيسو اللعين فقد قهقه ضاحكًا وأعاد كلمة اللص الشريف "العبي يا ألعاب"، ليأتي دور يونس والذي اختار أن يلعب دورًا كوميديًّا ويصيح كما الحانوتي فِي أفلام الستينات "وحدووووه"، لتتعالى الضحكات التي أحاطت بنا من كل صوب..
أشعر أنها خطيئة مني أن أتيت بكل هؤلاء -اللهم إلا الدرويش- والذي مالت عليه السيدة ضياء قائلةً برفق:

مولانا يشرب إيه؟!

ويا ليتها ما سألته، أشاح الدرويش ببصره عنها حين مالت نحوه لتظهر بعض مفاتنها من فتحة الصدر الشاسعة لفستانها الثمين، والتي جاء تصميمها مناسبًا للبس قلادة من لازود المشرق، شعرت بتأفُّفه فاعتدلت فِي وقفتها، ابتعد الدرويش ليجلس على الأرض، أخذ يكرِّر {فأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض}، ثُمَّ قال ونادى فِي القوم بصوته الجهوري {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك}..

الوضع هزلي فِي عيون الجميع، لكنه إيماني فِي قلب الدرويش، ملت إليه لأربت على كتفه وأحدثه أن هوِّن عليك يا شيخي.. فبكى بكاء العالم بما ستئول إليه المصائر، سألني بكل الحزن: أهؤلاء الذين أخذوا نصيبهم من الدنيا وما لهم فِي الآخرة، أم هؤلاء الذين غرَّتهم الحياة الدنيا؟!

ثم رفع يديه داعيًا:

اللهم إن هذا ليس حالي ولا تجعله اللهم مآلي..

اللهم إننا نطمع فيما هو خير منه عندك..

انتفض واقفًا وصاح.. ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود، وبقفزة رشيقة صعد على المنضدة التي تحمل بعض الزهور، لينادي بالأذان:

الله أكبر.. الله أكبر..

حجم الاضطراب يتجاوز اللحظة، البعض ظن أنه رجل سكِّير غلبت رأسه الخمر، بعض الشباب الموجودين اهتموا بنقل الحدث لايف على صفحاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي، حضر مدير الفندق فِي لمح البصر ومعه بعض أفراد الأمن خوفًا من الانفلات، ونجفة راشقة مع الراجل بتاع حتة بلدي فِي الجون، وبيسو وحسنولا فِي كون موازي يرتشفان "اللاتيه فابريانوا شوجار فري"، ويونس تجمَّع الناس من حوله ليلتقطوا معه صور سيلفي، والسيدة ضياء الحق تقف مصدومة، تتمنَّى من كل قلبها أن ينتهي هذا اللقاء الكارثي بكل المقاييس..

(٢٦)

انفضَّ السامر وانتهى الحفل على مشارف الواحدة صباحًا، وبعد فرح صاخب حضره الجميع انتهى برجال الأمن يحملون رفقتي لخارج الفندق، صرخت نجفة أنها تعاني من ألم شديد فِي بطنها، حاولت تهدئتها وأخبرتها أنه احتمال يكون من الأكل بتاع الفندق، لكنها أصرَّت أن أكشف عليها أو نروح مستشفى..

وأنا طبعًا اخترت الذهاب للمستشفى، فلن أسلم نفسي لنجفة أبدًا ولو حتَّى من باب الكشف الطبي عليها.. توجَّهنا جميعًا إلى المستشفى حيث أجري العمليات لمرضاي، وعلى بابها سألت مين موجود من الأطباء ليتولَّى الحالة؟ ليجيبوا أنها الدكتورة «هنا»..

«هنا» هذه تركيبة خاصَّة جدًّا من النساء، دماغ تانية خالص، صنعت لنفسها شرنقة وانعزلت بها، لا ترى العالم بأسره إلا كما تحب هي أن تراه، تتكلَّم دائمًا عن الوضوح والذي ربما يخرج بالكلمات عن المألوف أو

المقبول عرفًا، تكره تمامًا كل موروث وتعتبره قيدًا قهريًّا، حتَّى الدين لها عليه بعض التعليقات، لكنها لا تبوح بها كثيرًا..

من الآخر فرسة عصية على الترويض والتبويض، لها ابتسامة ساحرة جدًّا توجهها للجميع وهي لا ترى منهم أحدًا، بعد صولات وجولات من الصدام مع الجميع، أصبحت هادئة بعض الشيء، لكنه هدوء وجه الماء الذي يخفي فِي قاعه دوَّامات قاتلة، لها عينان فاتنتان بغير مجهود يُذكر..

ظهرت «هنا» وألقت عليَّ التحية بهدوء مخلوط باستنكار ملخصه:

وإنت إيه اللي جايبك دلوقت مع البت اللي شكلها شمال دي؟!!

لكنها توجَّهت إلى نجفة لتقوم بالكشف عليها، وبحكم تخصصها طبيبة نساء طلبت عمل تحليل حمل للحالة، لتصرخ نجفة فِي وجهها "بالصوت الحيَّاني"

حمل إيه يا حلوة إنتي اللي جاية تقولي عليه!!

ثم أشارت إلى مكان لا يصح الإشارة إليه بأي حال من الأحوال لسيدة محترمة قائلةً:

دا عمره ما انكشف على راجل..

ردَّت عليها «هنا» بغير اكتراث لما صنعت

وإيه يعني لما يتكشف!! دي حريتك الشخصية، أنا مش شيخ الجامع ولا إنتي عيلة صغيرة وأنا وصي عليكي، دا جسمك وإنتي حرَّة فيه..

كادت نجفة ترقص طربًا لكلماتها المتحررة من كل القيود وقالت مشيرة نحوي:

والنبي تبقي تقولي للأووستاذ الكلمتين دول..

نظرت إليَّ «هنا» وهي تضحك نظرة مُلخَّصها

"هو نِفسُه بس عامل فيها عفيف" ونصحت نجفة بثقة الخبير قائلة "اتقلي عليه وهو يقع على بوزه"

كانت نجفة فِي غاية السعادة بهذه الكلمات، ولأنها متأكدة إن مفيش حمل تمسَّكت بكلمات هنا..

وبينما نقف منتظرين نتيجة التحليل وانتهاء الكشف، مال يونس ليحدثني مشيرًا إلى «هنا»:

البت دي فِي الآخرة يا تلاقيها فِي عليين، يا تلاقيها فِي أسفل سافلين، اللي زي دي متعرفش أنصاف الحلول..

ليُتابع بيسو فِي غفلة من حسنائه:

حتة أفغاني أصلي، تِسكرك وهي لسه فِي السلوفانة، عيون نصف نائمة، بشرة خمرية، شعر قصير بستايل راقي، طولها لا يتجاوز المتر ونصف، هي فِي تصنيف النساء من النوع الحراق، لكن اللي زيها متنفعش فِي جواز واستقرار، وقال جملة أخرى لا يمكن نقلها فِي الرواية..

خرجت «هنا» وفي يدها التحليل وقالت مبتسمة:

براءة يا نوجة النوبة دي..

انتهى الكشف، توجَّهنا جميعًا لباب الخروج لنصطحب الدرويش الذي تركنا ليجلس بباحة المستشفى داعيًا الله بالخير مُردِّدًا: مقدَّر ومكتوب، اقتربت «هنا» تشرح لي الحالة وتخبرني أن نجفة عندها كيس ليفي على الرحم، نظرت إلى الدرويش السارح فِي عالم موازٍ، لتسأل متهكمة إيه المواطن البركة دا؟!

تجمَّدت تعابير وجه الدرويش عندما سمع صوتها، وكأن صاعقة ضربت روحه، وسحبتها من عالمه رغمًا عنه لينظر إليها وعلامات الذهول ترتسم على محياه.. وكالخارج من جُبٍّ سحيق أخذ يردِّد {فأما الذين سعدوا ففي الجنة}..

نظرت ساخرة من هنا وجهتها إليه وهي تسأله: هو المفتاح معاك يا عم الدرويش؟!

وقف يرمقها بنظرات هائمة لم أعتدها منه يومًا لأيِّ أنثي مهما بلغت فتنتها، ليردَّ على كلماتها الساخرة بمنتهى العقل:

- يا بنيتي من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح فِي لاش، والعاقل عن عيوبه فتَّاش..

ثم أردف وعلامات الحنين ترتسم على مُحيَّاه:

إنتي بتفكريني بتاريخي الموغل فِي القدم..

ليعلّق بيسو ضاحكًا "شكلك كنت شقي يا عمونا"، ويكمل يونس وصلة السخرية "الدهن فِي العتاقي"، ليأتي دور نجفة التي أسرعت لتحتضن هنا وهي تقول:

والله إنتي دكتورة عسولة، ماتجيبي تليفونك..

أكيد هنحتاجك قريب..

(٢٧)

ساد الصمت و"هنا" تجلس بجوار الدرويش كلٌّ يهيم فِي وادي أفكاره الغريبة، هي نوع غريب وخاص جدًّا من النساء، تحاول جاهدةً أن تبدو منفتحة إلى درجة الخروج على المألوف، لكنها فِي الحقيقة كُتلة من الرقة والحياء غلَّفتها بقشرة قاسية من أجل أن تسير فِي درب "الإسترونج إندبندنت ووومان"..

أخرجت من حقيبتها سيجارة وجلست بجوار الدرويش، عرضت عليه واحدة وعندما رفضها قرَّرت أن تعيد سيجارتها إلى العلبة، لكنه طلب منها أن تشربها، فهو يحب رائحتها..

كان عالمًا جديدًا ينشأ حول الدرويش وحولها، هي لا تراه رؤية حقيقية، وهو يراها حتَّى نخاع الوجع، متمردة تغلفها قشرة من الفولاذ، لكن من ينظر أسفل هذا الفولاذ تصدمه نظرية الملبن التي تسكنها حقًا..

نظر لها من بين دخان سيجارتها المُتطاير حولها كغمامة تلفُّها بعالم خيالي..

أما قبل..

فإنك وإن كنت حديثة عهد بالحب

فإنك غائرة فِي تأريخ العشق..

وما عليك إلا أن تواجهي وتُواجَهي..

فالظباء لا يحميها البكاء حين تعشق الصياد..

كانت لا تدرك كلمة مما تسمع منه، ولولا أن شيئًا غامضًا يربطها بهذا الدرويش، ما جلست بجواره لدقيقة واحدة..

هذا النوع من البشر يخنقها القرب منه، ورغم أنها تبدو ليبرالية الهيئة إلَّا أنَّها دكتاتورية الرؤية و"معندهاش يا أمه ارحميني"، سحبت نفسًا من سيجارتها ونفخته ليطير بعيدًا فِي الهواء، نظر الدرويش إلى الدخان نظرةً آمرة وكأنما امتدت أيادٍ خفية لتجمع الدخان فِي خيط رفيع مُتجهًا نحو الدرويش ليستنشقه..

كاد الدرويش يغيب مع دخان أنفاسها الممزوج بسحر لا يعرفه إلَّاه، أمَّا هي فمثل المُقيَّدات بالسحر، غير مرتاحة لقربه، وغير قادرة على الانسحاب، وكأنَّ حوارًا مُستترًا يدور بين الدرويش وخفاياها، يُكلِّم فيه ذاتها لا مظهرها، وهي تقاوم هذا المجهول حتَّى الثمالة..

أخرج الدرويش من حقيبته رواية عشق عالمية، فتحها بروية وكأنَّما يتلمَّسها بكل العشق، لنرى جميعًا اسم هنا مكتوبًا بخطوط من نور على صفحتها الأولى..

طلب الدرويش قلمًا وكتب لها:

"إلى تلك التي التقيتها بعد ألف ألف عام من الترحال بحثًا عنها"

أمسكت هنا بالرواية، ونظرت إليها، وكأن شيئًا ما قد تغيَّر فِي ذاتها حين قرأت ما كتب الدرويش، سألته ببعض الاضطراب والغضب:

أنا شُفتك قبل كدا فين؟!

رفع عينيه إلى عينيها هامسًا:

إحنا كنا مع بعض هنااك..

كان يونس يقف قريبًا يتابع ما يحدث، ويستمع للكلمات المُبهمَة، فتح التنور سريعًا ونظر فيه، ثُمَّ كتب

"هنا والدرويش"

كان التاريخ يعدو نحو الخلف سريعًا، ألف ألف عام قبل النزول إلى الأرض، يصل إلى العام السابع قبل المليون عام الأولى من عالم الذر، صبيحة يوم جمعة كانت هنا والدرويش يجلسان تحت ظل عرش شجرة الحياة، لقد كانا قبل أن يكون كل شيء، إنهما أصل التأريخ القديم، وأصل بذرة الحياة..

إن الدرويش يعرفها حقًا، لا معرفة فحسب، بل إنهما من فصيلة السكان الأوائل..

الدرويش طلع مش عادي، وهنا طلعت من هناك، من بلد الدرويش الأولى..

وأنا اتلخبطت ولم أعد قادرًا على الاستيعاب..

قال الدرويش متمتمًا:

ها نحن نلتقي بعد ألف ألف عام من البعاد والعناد..

ها نحن نجلس مرَّة أخرى تحت ظلِّ عرش الغربة..

لا يعرف أحدُنا الآخر، ولا تُنكر أرواحنا معرفتها..

اقتربت بلا سبب لتسند كتفها إلى كتف الدرويش، وهو لم يتحرَّك البتة، بل كان فِي انتظار أن ترتمي بين أحضانه.. لكنها مازالت لا تعرف باقي القصة..

قالت للدرويش:

أنا خايفة، خايفة من قربي منك، وخايفة أكتر من بُعدي عنك، أنا نفسي أبعد، لكن مش عارفة، خايفة يكون البعد خسارة، وكمان خايفة أقرب أكتر أتحرق..

كانت تتكلم بلغة عالم اليوم وكان يتكلَّم بلغة عالم الذر..

مِلت على الدرويش أسأله:

هي إيه الحكاية يا مولانا؟!

لكن الدرويش يهيم فِي عالم آخر، ونحن ضيوف غير مرحب بنا، قالت نجفة:

حلاوتك يا مولانا وإنت فِي الدكانة..

وضحكة رقيعة قسَّمتها على جدول نبطشيات المستشفى ففاضت.. وصوت أغنية من هاتف أحدهم..

الجو هادي خالص

والدنيا هس هس

وأنا وإنت يا حبيبي

ونجوم الليل وبس..

ونجفة تلك التي لم تفقد شغفها فِي هزتين خطف يلموا عليها الزباين، وبيسو المجنون يقول:

عليَّ النعمة الدرويش دا طلع نمس..

حلاوتك يا مولانا...

(٢٨)

كل شيء قابل للمساومة إلا المقاومة..

أمسك الدرويش بيد «هنا» فِي تضرع، كتب فِي كفها بمداد من حنين "عودي"، ثُمَّ انتفض واقفًا وقال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان..

لجأ إلى ركن بعيد عن الجميع، جلس ففاضت دموعه وتمتم من بينها:

لم تكن هكذا يوم كانت، لقد تركتُها وهي يمامة بيضاء،

كم كانت الأيام حبلى بالوجع! وكم كان الطريق مليئًا بالأهواء! ولرُب يوم لم يُكتب لك فيه هدى..

إن الذين خاضوا الطريق ضلُّوا

وإن الذين ضلوا زلُّوا..

وإن أول الزلل الملل

وإن أول الملل جفاف الروح..
وإن جفاف الروح قلَّة الذكر
وإن قلَّة الذكر عنوان الغفلة..
وإن الغفلة أول طريق الالتواء
وإن الالتواء أول البعد عن الاستواء..
وإن الاستواء طريق الراشدين
وإن الراشدين هم المهديون..
وإن المهديين هم المحسنون
وإن المحسنين هم أهل النعيم..
وإن أهل النعيم عن العذاب لمبعدون
إلا من بَطُؤَ به عمله ولم يسرع به نسبه..
ومن هانت عليه نفسه هانت على الناس قبله..
ومن خاض فِي البيداء شقَّ على نفسه المسير..
ومن لم يرَ العواقب هلك فِي الطرقات..
ومن لم يعظ نفسه وعظه الداء..
ومن لم يعظُه الداء أوجعه الدواء..

ومن لم يعظه داء ولا دواء، كانت هلكتُه على يدي جهله..

طوبى لمن حاسبها قبل أن تُحاسب

ووزن أعماله قبل أن تُوزن..

طوبى لمن قدَّم نفسه قربانًا لمولاه..

طوبى لمن قبله مولاه فتولاه..

طوبى لمن تولاه مولاه فهداه..

طوبى للعبيد السالكين

أولئك الذين هم فِي طرقات السماء معلومون

وفي دروب الأرض هم من المجهولين..

كل نفس بما كسبت رهينة

ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون..

إن من شقت عليه الطاعة حق عليه العذاب..

ومن ترفَّع عن العبودية شقَّ عليه هواه..

تبًّا للسالكين دروب الشر طريقًا

تبًّا للهالكين على البر وإن نجوا

تبًّا للعازفين عن الطريق

الهالكون على أبواب التيه..

الغافلون عن الحق المبين..

حي.. حي.. هو الله..

غاب كل شيء أمام هول الكلمات، فلم يغرِّد عصفور ولا غراب مر وفات، كان الصمت يغمر المكان والزمان، اقتربت نجفة وقالت بقليل من العقل الكاذب:

هي إيه حكاية الدكتورة هنا دي يا مولانا؟! تكونش حبيتها؟! ولا فكرتك بحد كنت بتحبه أيام الشقاوة؟!

ثم نظرت إليَّ وقالت محاولةً المزاح:

مؤكَّد مولانا كان شيخ فرع الشقاوة..

كان الذي يدرك جسامة الحدث هو يونس، يبدو أن التنور فيه أحداث عظام، غابت هنا عن أنظارنا جميعًا، تمشي شاردةً لا تنبس ببنت شفة..

ناديت النادل ليحضر بعض المشروبات الساخنة، أخذت منه نجفة فنجان القهوة المظبوط، وجلست بجواري وهي تتحدَّث بصوت خفيض..

- والله الدرويش حاله يصعب ع الكافر، تقريبًا كان فِي بينهم إنَّ، شكله كان أُلعوبان بس اتهدى..

نظرت إليها بلامبالاة وقلت عقبالك..

فتحت فتحة صدرها، وتفلَت فيه عن عمد وهي تقول:

الشر برا وبعيد، أنا لسه صغيرة وعايزة أتمتع بشبابي.. واقتربت مني بشكل مريب وهي تهمس والله قلبي وجعني من اللي حصل، ما تقوم كدا تكشف عليا، وتشوف قلبي ماله!! والنبى تسمعه يا أوستاااذ.. هتلاقيه تعبان أوي، وبيقول بووووم بووم..

أسرعت بالفرار من جوارها الملعون حين تجسَّدت نواياها الشريرة، ثُمَّ أردفت كلماتها بضحكة رقيعة لا محل لها من الأحداث..

ومن خلفي كان بيسو يلبس السماعة "الهاند فري" فِي أُذنيه ويشارك المطرب الغناء..

طبيب جراح..

قلوب الناس أداويها...

ثم تمتم.. بركاتك يا قادرة...

(٢٩)

مرَّ الأسبوع فِي رتابة، ألهتني الحياة ومشاغلها عن جلستي التي اعتدتها مع يونس، حتَّى جاء يوم إجازتي فقطعت عليه خلوته التي اتَّخذها فِي غيابي، لاستكمال ما بدأناه من حوار تشعَّب بنا فِي عوالم لم تخطر لنا على بال من قبل، سألته كيف كانت الآخرة؟!

ليجيبني برتابة فريق فِي الجنة وفريق فِي السعير..

اعترضت على وصفه الموجز.. أعلم ما تقول، لكن صف لي حالك وحال من التقيتهم هناك، فقال:

حين وصلت إلى هناك كان فيه صعوبة فِي التعايش، لكن بعد فترة تأقلمت على الحياة فِي العالم الآخر، كانت الأيام الأولى طويلة جدًّا، أكثر ما أزعجني فيها كان رائحتي أثناء مرحلة التعفن، شعور مقزز جدًّا والدود يقتات على جسدي المسجي بلا حول ولا قوة، حتَّى أنني هربت من رؤية هذا المنظر مرَّات عديدة لشدَّة وقعه على روحي التي مازالت مرتبطة بهذا الجسد،

استمرَّ هذا الحال ما يقرب من السنة.. تخيَّل العذاب

إنك موجود فِي نفس المكان مع جسدك وهو بيتحلل ويتعفن، ومش بس كدا دي "الخيبة التقيلة" لما فتحوا بعد ست شهور؛ علشان يدفنوا معايا واحد تاني من العائلة، ومطلوب مني أتحمِّل تعفنه ودوده..

السنة الأولى فِي الموت بتكون سخيفة جدًّا وصعبة، لكن مع مرور الأيام التي تفقد قيمتها بتتعود على حياة الموت كمن يتعوَّد على حياة السجن..

الخروج من القبر فِي السنة الأولى للتواصل مع الآخرين من سكان هذا العالم بيكون قليل جدًّا، بحكم إنك لسه غريب ومش عارف ناس كتير، ولا عارف الطريقة الصواب للتواصل، حاجة كدا زي الطفل الصغير اللي لسه بيتعلِّم المشي من البداية..

اتسعت ابتسامتي وأنا أتخيَّل بعض الأرواح تخرج للنزهة أو تنظِّم حفل سمر على حدود المقابر، وسألته بمرح إنتم بتتفسحوا هناك؟!

أيوة.. بس زي البالون الطاير لكن مربوط فِي وتد، الوتد دا يبقى جثتك.. الحياة فِي الآخرة رائعة خاصَّةً لمن يشفع لهم حسن سيرتهم وعملهم ورصيدهم من الخير فِي

الحياة الدنيا، هنا يكون وقت الحصاد لكل صبرهم وتعبهم ورضاهم فِي الدنيا، الحسابات هناك مُختلفة تمامًا، ممكن أحكيلك عن ناس قابلتهم هناك، أنا وإنت نعرفهم كويس كان نصيبهم من الدنيا أقل القليل، بس هناك هم ملوك حقًّا..

فاكر عم سيد اللي كان بييجي يمسح السلالم فِي بلدنا، الراجل الطيب دا اللي كانت ابتسامة الرضا لا تفارق وجهه على أي عطاء منَّا ولو بسيط، كانت كلمات الحمد والشكر هي الملازمة له فِي كل وقت، كانت وجبة بسيطة تهديها له فِي يوم شتاء بارد تستجلب سيلًا من كلمات الشكر لله والدعوات لنا بالبركة، فاكره الراجل الطيب دا؟

طبعًا فاكره.. كان من الشخصيات الطيبة رغم بساطته الشديدة رحمة الله عليه..

لن تتخيَّل كيف كان استقبال هذا الراجل حينما حان موعد وصوله، حفل وكأنه لأحد الملوك العظام، وقف الجميع للترحيب به، ينظرون هالة من النور تحيط بموكبه لم نر مثلها من قبل، وعندما سألنا بم فضله الله

علينا، كان الجواب أنه من الصابرين الشاكرين لأنعم الله فِي السراء والضراء..

استطرد يونس وهو يضحك بصوته العظمي المُخيف،

ألذ حاجة حصلت يومها لما العمدة سلاموني الذي كان دائم التفاخر والمن عليه فِي الدنيا، كان يقف فِي استقباله، وأسرع يسترضيه، يريد أن يصبح واحدًا من أتباعه..

شوفت النكتة المُبكية المضحكة فِي آن واحد، العمدة سلاموني عاوز يبقى من رجالة عم سيد الغلبان!!

(٣٠)

استيقظت على صوت عظام يونس تكسر هدوء الفجر،

وجدته جالسًا فِي الشرفة وصوت مرور الهواء بين ضلوعه تنم عن حالته النفسية وكأنه صوت ناي حزين..

صوت لا أحبه مطلقًا لما يصيبني به من كآبة تحتاج إلى مهدئ أو علاج نفسي، جلست بجواره أسأله عن حاله وما يكدره، أجابني..

ليه الواحد منَّا ميجربش الموت مرة على الأقل وهو عايش؟!

الكلمات غريبة مع صوت الناي النابع من مرور الهواء

بين عظامه النخرة، والفجر يوشك أن يهتك ستر الليل الجاثم على صدره، لكنه أكمل:

كل واحد فينا محتاج يجرَّب يموت شوية علشان يعرف حاجات كتير جدًّا ويستوعب الحقيقة..

محتاج يموت لكن روحه تفضل موجودة، تتفرَّج على تصرفات الناس بعده، مراته، أولاده، أهله، أصحابه، زملاؤه وحتى أعداؤه..

محتاج يعرف الناس دي إيه رد فعلها على رحيله!!
محتاج يعرف هيتنسي بعد كام ساعة، أو كام يوم!!
محتاج يعرف امتى هييجي على بال الناس!!
محتاج يعرف التعب اللي تعبه فِي بناء حياته الدنيوية كان فِي الاتجاه الصح ولا الغلط!!
مش بس كدا، دا محتاج يعرف هو عمل إيه فِي دنيته لآخرته، محتاج يتفرج على صفحات حياته، ما ادَّخر من حسنات وسيئات، يطَّلع على ملفات ذنوب عملها عمرها ما خطرت على باله، وحسنات عملها عمره ما تخيَّل إن لها قيمة أو وزن..
الواحد محتاج يموت وكأنه امتحان تجربة، بروفة موت علشان بعدها يعرف يقرَّر الباقي من عمره هيعمل فيه إيه؟! أجبته..
- ممكن الواحد يعرف دا لو آمن بالغيب كما يجب..
- عندك حق، لكن ليس السامع كالمُشاهد، الواحد محتاج يموت ويتفرَّج على جسده والدود يأكله، صورة فِي منتهى القسوة، لكنها درس فِي صميم المعرفة..

محتاج يعرف إنه إلى زوال علشان نفسه تهدأ وتعلم قدرها، ويتصالح مع كل خلق الله من الجمادات إلى كل ما سكنته روح مهما تضاءل حجمه وقدره..

سألته بما إنك قد خضت هذه التجربة، لو رجع بيك العمر مرَّة تانية، هتعمل إيه معملتوش فِي حياتك الأولى؟ إيه أعظم الأعمال فِي الميزان حتَّى تجعلها نصب عينيك، وإيه أثقل الخطايا فِي ميزان السيئات لنهرب منها كما نهرب من الأسد فِي العراء؟!

رغم إني عارف إني هخوض نفس التجربة، بنفس الجهل، لكن كنت أتمنَّى أخوضها وأنا شخص تاني خالص.. تصوَّر كان نفسي أخوضها وأنا نبي، أو وأنا درويش.. الدنيا فيها نوعين مرتاحين، الصالحين على حق، والصعاليك عن رضا، لكنهم لا يستويان مثلًا..

عمَّ المكان صمت قطعه يونس بقوله:

المشكلة الحقيقية أننا لم نقرأ كتاب الرحلة أبدًا، رغم أن كل واحد فينا استلم منه نسختين، نسخة belt in، ونسخة على فلاشة، لكن بهرجة الرحلة، أضواء الطريق، صوت ضجيج الفتنة، قِصر وقت الرحلة، غفلة الراحل،

صحبة الأرذال، حلم البقاء، فجأة الرحيل، انقضاء الرفض، تعلق القلب، هوى النفس، دِقة الميزان، صعوبة الترك، وفجأة المعرفة.. كل هذا يأخذك فِي الرحلة حتَّى إنك لا تفيق إلا على صافرة قطار الوصول، وأنت تحمل حقائبك فِي المحطة النهائية وحدك لا معين لك..

ثم صوت من الرصيف الآخر يقول:

الحمد لله على السلامة، عندها فقط ستعرف إن كنت راكب القطار الصح اللي وداك مكانك المُفضَّل، أو ركبت القطار الغلط ورحت فِي آخر مكان تحب تُخلد فيه..

مش بس كدا، ناظر المحطة سيخبرك إن دا اتجاه واحد ولا قطارات للعودة..

فالمجد كل المجد لمن ادَّخر للرحلة زادها الذي يضمن له سلامة الوصول..

المجد كل المجد لمن أدرك حقيقة الرحلة.. فسعى لها سعيها وفاز بالمعِيَّة إلى أبد الآبدين..

تمَّت